Add to Basket

روايات الهلال

جورج سيمينون

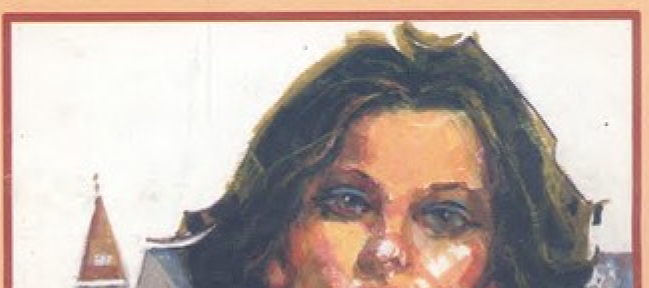

خيال الظل

العدد ٦٥٦ - أغسطس ٢٠٠٣ - جمادى الآخرة ١٤٢٤ هـ

روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي
تصدر عن مؤسسة دار الهلال

الاصدار الأول
يناير ١٩٤٩

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

سكرتير التحرير
مؤمن حسين

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ١٢٥٠ فلسا - السعودية ١٢ ريالا - البحرين ١,٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الامارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١,٢ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٣,٥ دولار - سويسرا ٤ فرنكات.

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج. م. ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولارا

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

للاشتراك فى الكويت: السيد عبدالعال بسيونى زغلول الصفا ص. ب. ٢١٨٣٣ (13079) ت: ٤٧٤١١٦٤

الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات: ص. ب: ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج. م. ع.

تلكس :
Telex 92703 hilal u n

فاكس :
FAX 3625469

خيال الظل

تأليف

جورج سيمينون

ترجمة

د . حماده إبراهيم

●

دار الهلال

هذه هي الترجمة الكاملة للرواية الفرنسية

L'ombre Chinoise

للكاتب البلجيكى Georges Simenon

الغلاف للفنانة :

سميحة حسنين

قبل أن تقرأ

هناك شبه إجماع لدى نقاد الرواية المحدثين على أن الرواية البوليسية أمريكية النشأة ، وبالتحديد على يد القصاص الأمريكي الأشهر «إيجار آلان بو» .. ورغم اختلاف الجنس الأدبي بين ما كان يبدعه «بو» ، إذ إنه قصاص في المقام الأول ، وبين الشكل الروائي ، إلا أنه هو صاحب هذه النكهة البوليسية على مائدة الحكي بشكل عام .

وعندما تأثر الكاتب الفرنسي «إميل جابوريو» بهذا المنحى البوليسي فى الكتابة الروائية ، ونشر روايته «القضية الحمراء» سنة ١٨٦٦ ، أحدثت نجاحا مدويا ، واتسعت دائرة عدوى الرواية البوليسية لتصيب أوروبا كلها ، وبخاصة انجلترا ، فلاقت رعاية واهتمام عدد من كبار الكتاب الإنجليز ، الذين أرسوا دعائمها ، واستوت على أيديهم ذات شخصية وملامح، ومنهم «أرثر كونان دويل» ، «دورثى سايوز» ، «أجاثا كريستى» و «أيان فلمنج» .

ازدهرت القصة البوليسية فى انجلترا ولقيت على يد كتابها رعاية ونضجا ، رغم ولوجها إلى أوروبا من المنفذ الفرنسى ، فتحددت ملامحها وتأكدت بطابعها الفكرى المعنى بحل مشكلة تبلغ حد اللغز أحيانا ، ورسخت مبدأ أن المجرم لامهرب له من العدالة ، ويجب أن ينال جزاءه فى النهاية ، كذلك أتاحت للقارىء الاشتراك فى تعقب الجانى ، والكشف عن وسائل تنفيذ الجريمة قبل أن يكشف عنها المؤلف .

لقد عملت الرواية البوليسية بهذه الملامح ، التى وضعها الكتاب الانجليز، على إرضاء «ذكاء القارئ» . واقتربت به كثيرا من المعادلات الرياضية وحسابات المنطق ، فلم يعد «القارئ» لها مجرد متلق فقط ، ومن هنا كان الشغف بها فحققت أعلى المبيعات .

غير أن هذا الشوط الذى قطعه الانجليز فى مضمار الرواية تأليفا وتأطيرا لملامحها لديهم لم يقابل من الفرنسيين بارتياح كبير . فالفرنسيون حريصون دائما على مكانتهم الثقافية ، ليس فى أوروبا وحدها وإنما فى العالم كله ، ومن هنا كانت محاولاتهم المستمرة للمنافسة مع الانجليز ، وتمثل هذا فى إصدارهم سلاسل للرواية البوليسية خلال الفترة ما بين الحربين العالميتين من أشهرها «القناع» و «السلسلة السوداء» .

وهكذا ظلت الرواية البوليسية الفرنسية تحاول اللحاق برواية الانجليز البوليسية ، وتدور بشكل تقليدى فى إطار من العنف والجنس والجريمة ، إلى أن جاء «جورج سيمينون» البلجيكى الناطق بالفرنسية ليتقدم بالرواية البوليسية الفرنسية خطوات إلى الأمام وليضعها فى مصاف أرقى ما أبدعه الأدب الانجليزى ، خارجا بها من الإطار المتعارف عليه بما أضاف إليها من التحليل النفسي ، مستفيدا إلى أبعد حد مما كتب «فرويد» وغيره من علماء التحليل النفسي .

ولد «سيمينون» سنة ١٩٠٣ فى مدينة «لييج» ببلجيكا لأسرة من بسطاء الناس ؛ أب يعمل فى سوق الدواجن ، وأم بلا مهنة ، غير أنه ظل طوال حياته ، حتى بعد أن تدفق المال بين يديه وفيرا ، لايجد السعادة إلا فى كنف هذه الأسرة..

تلقى تعليمه الابتدائى فى نفس المدينة التى كانت متوسطة الكثافة السكانية ، والواقعة على مقربة من هولندا وألمانيا ، وتضم عددا من المنشآت الكبرى ؛ جامعة ومتحفا ودارا للأوبرا ، وبعض الأديرة الأثرية وعددا من

القصور القديمة ، وموانيء تقوم على الأنهار التى تمر بها أو القريبة منها .

ترك «سيمينون» التعليم بنهاية المرحلة الابتدائية وبداية الحرب العالمية الأولى ، فعانى تحت وطأتها هو وأسرته الفقيرة نقص الطعام وبرد الشتاء .

تردد «سيمينون» على عدد من الأعمال فى فترة صباه ، فعمل بمخبز ومكتبة وغير ذلك من الحرف والمهن ، غير أنه فى كل هذا كان مولعا بالقراءة، ، فتعرف على الروائين الروس مثل «جوجول وديستويفسكى وتشيكوف» ، ومن الفرنسيين أعجب بـ «مارسيل بروست» وتأثر به كثيرا .

التحق «سيمينون» فيما بعد بالعمل فى صحيفة «جازيت دى لييج» محررا فى قسم الحوادث ، فتردد على أقسام الشرطة ودور الرعاية ، ولكنه توسع أكثر فأجرى الأحاديث والاستطلاعات الصحفية حول افريقيا ، عندما كانت مستعمرة أوروبية ، لصحيفة «بارى سوار» .

هكذا وجد «سيمينون» عملا محترما يدر عليه المال الوفير الذى كان ينفقه فى التجول والترحال باحثا عن الإنسان الفطرى الذى كان يجد فيه نفسه .

كانت المرأة القاسم المشترك للقراءة والكتابة فى حياة «سيمينون» ، فعرف طوال حياته ، ومنذ مراهقته ، مئات النساء ، ورغم أنه بهذا الشكل لم يكن فى حاجة إلى رابطة الزواج فقد تزوج فى سن السابعة عشرة .

تزوج «سيمينون» عام ١٩١٩ بفتاة من مسقط رأسه -مدينة «لييج»- اسمها «تيجى» فنانة تشكيلية ، عاشت معه تغفر له نزواته ، غير أنها لم تستطع الاحتمال كثيرا واتسع الخلاف . وعندما قرر «سيمينون» أن يذهب إلى الولايات المتحدة عام ١٩٤٥ ، لم تذهب معه ، وحملت طفلها منه وذهبت إلى فرنسا . وفى الولايات المتحدة نسيها «سيمينون» تماما وطلقها

عام ١٩٥٠ ، وزارها في بيتها بباريس عام ١٩٨٢ ، واستعاد معها ذكريات الأيام الجميلة في حياتهما ، وبعد ذلك بثلاث سنوات رحلت «تيجي» عن الحياة تاركة هذه الذكريات منشورة في كتاب مع مجموعة من صورهما معا .

في نيويورك التقى «سيمينون» بزوجته الثانية «دنيس كيميه» ، كندية تتحدث الفرنسية ، تزوجها عام ١٩٥٠ . عادت معه إلى باريس ، ورغم أنه رزق منها بثلاثة أبناء فقد ظلت حياتهما متوترة على الدوام . لقد كان من عادته أن يختلي بنفسه أوقات الكتابة ، وكانت هي لاتقدر هذا ولا تراعيه ، فلم تكن ترى فيه إلا روائيا مرهونا عندها ، يزودها بما تحب من مال ، ولم تر فيه أبدا الأديب الشريف الذى بدأ من الصفر .

كانت حياته مع «دنيس» لاتطاق ، ولم تحتمل مغامراته العاطفية كزوجته الأولى ، وكان عليه أن يطلقها ، وأن تكتب هي كتابا عن حياتهما معا . قصت فيه تاريخ حياتهما ، وكشفت كل أسراره ومغامراته .

اتخذ «سيمينون» خادمة زوجته الثانية «دنيس» صديقة له وكانت ايطالية تدعى «تيريزا» ، وكان يبلغ من العمر ثمانية وخمسين عاما ، ويكبرها بخمسة وعشرين عاما ، غير أنه وجد معها من السعادة والحب مالم يجده عند زوجتيه السابقتين ، لقد هيأت له الأمان والثقة والسلام ، وجعلت من بيته المرفأ الهادىء الذى يطمئن إليه ، وفيه يكتب ويحلم .

ظل «سيمينون» يكتب طوال مايزيد على نصف قرن ، فقد كتب أولى رواياته «عند جسر الأعمدة» وهو فى السابعة عشرة من عمره ، وعلى الرغم من أنها لم تلق الصدى الكافي من الإعجاب فإنه لم يتراجع وواصل الكتابة..

كتب «سيمينون» رواياته باسم مستعار من عام ١٩٢٤ إلى ١٩٣٢ ، وهو

من أكثر الكتاب قراءة وترجمة فى العالم ، فقد ترجمت رواياته إلى أكثر من مائة لغة ، وقرأ رواياته أكثر من ٤٠٠ مليون قارئ» .

إنه نشيط إلى أبعد حد ، فقد كان يستيقظ فى السادسة صباحا ، ويتناول القهوة ويبدأ العمل حتى السادسة والنصف مساء ، ولم يكن يتوقف عن الكتابة أبدا ، حتى وهو على ظهر قاربه ، ويبعث ما يتمه إلى ناشريه بالبريد .

لقد كان «سيمينون» غزير الإنتاج إلى حد أنه كان ينجز بعض رواياته فى ثلاثة أيام ، وكان يتم خمس روايات ، أحيانا ، فى شهر واحد ، وبهذا استطاع أن يرفع دخله ويمتلك ما يريد من السيارات والزوارق . لقد كتب فى كل مكان ذهب إليه ، وكان قبل أن يشرع فى كتابة الرواية يعد ظرفا كبيرا ، يضع فيه أسماء شخوص الرواية وأعمارهم ، وعاداتهم وصفات زوجاتهم وحالتهم الصحية ، ثم يضعهم فى مواقف تضطرهم إلى الذهاب بعيدا ، ثم يتبعهم ليعرف ماذا يفعلون ، ويمضى معهم يوما وراء يوم ، ولايعرف أبدا كيف ستنتهى الرواية .

عندما بلغ «سيمينون» السبعين من عمره قرر التوقف عن الكتابة ، كان قد أمضى سبعين عاما فى حياة نشطة ، واعتبر شيخوخته المرحلة الأكثر سعادة وجدية فى حياته .

لقد شعر بالسعادة عندما توقف عن كتابة الروايات ، وبعد أن أضنى فكره ممسكا بشخوصه ، يعيش داخلها ، ويقاسمها مر الحياة وتعاستها .

توقف .. وقرر بيع بيته الكبير ، وسرح الخدم ، ولم يعد يحمل ورقا ولا أقلاما ، ولايستهدف معرفة غير ذاته فى أعماقها ، واشترى جهاز تسجيل ، وبدأ يملى عليه من الذاكرة ما يجول برأسه فى إيجاز .

لم يكن قرار التوقف سهلا ، وبدا هذا فى البداية مستحيلا ، وانتابته

غصة أن من لايتعب لايستحق أن يأكل ، ومن لا يفكر فهو مجرد وجود فارق الحياة ، ولكنه صمم على التوقف ، وابتعد عن الكتابة واستغرق مع جهاز التسجيل يملي عليه ذكرياته تحت عنوان «أماليّ» يروى فيها حياته أو بعضا منها .

لقد أهدى هذه الأمالى إلى ابنته «مارى جو» التى أحبها ، وكان لها كخادم المصباح ، يلبى كل ما تطلبه منه ، ولكنها انتحرت ورحلت مع الراحلين ، وتركته وهى فى سن الخامسة والعشرين لتفسح له فى الحياة للذكرى يمليها ولها يهديها .

لقد كانت هذه الأمالى أحب إلى «سيمينون» من كل ما كتب .. فهل لأنها فى الأعماق تحركه ، وتذكره بما مضى وكان الأجمل فى حياته؟ .. نعم هو هذا بكل تأكيد .

روايات الهلال

(١)

كانت الساعة العاشرة مساء . وكانت أبواب الحديقة الصغيرة مغلقة وسط ميدان «الفوج» الخالي ، وثمة آثار تلمع خطتها العربات فوق الأسفلت ، وغناء النافورات الدائم ، وأشجار بلا أوراق ، ومقاطع أسطح متشابهة كلها ، تتكرر على منوال واحد على صفحة السماء .

وتحت أعمـدة النـور ، التي تشكل إطارا عجيبا حول الميدان، قدر ضئيل من الضـوء ، وثلاثة حـوانيت أو أربعة . ولمـح ميجـريه مفتش المباحث أسرة تتناول طعامها داخل حـانوت – من تلك الحـوانيت – تكدست فيه أكاليل الموتى المرصعة باللؤلؤ .

كان يحاول قراءة الأرقام الموجودة أعلى الأبواب ، ولكنه ما كاد يتعدى حانوت الاكاليل حتى خرج عليه من وسط الظلمة إنسان ضئيل :

– أنت الذى اتصلت بك تليفونيا منذ قليل ؟

لابد أنها ظلت تترقب فترة طويلة . وعلى الرغم من برد نوفمبر ، فإنها لم ترتد معطفا فوق مئزرها . كان أنفها أحمر وعيناها قلقتين .

وعلى بعد لا يبلغ المائة متر ، عند منعطف شارع بئار ، يقوم أحد رجال الشرطة بالحراسة في زيه الرسمى . فقال ميجريه متمتما :

– ألم تخطريه ؟

– كلا ! بسبب مدام سان مارك ، التي توشك على الوضع ... انظر ! ها هي ذي عربة الطبيب ، الذي استدعى على عجل .. وكانت هناك ثلاث عربات عند حافة طوار الشارع ، مصابيحها الأمامية مضاءة ، وكذلك نورها الخلفي الأحمر . أما السماء ، حيث كانت بعض السحب تمر على أغوار يغمرها ضوء القمر ، فقد كان يلوح عليها شحوب غامض . فكان الناظر يظن أن تباشير الجليد بسبيلها إلى السقوط .

كانت الحارسة قابعة تحت قبو العمارة ، الذى يضيئه مصباح قوته خمس وعشرون شمعة ، دكن لونه من أثر التراب .

– سأشرح لك ... هنا ، الفناء .. يجب على المرء أن يجتازه لكي يصل إلى أى مكان في البيت ، ما عدا الحانوتين ... وهذا مسكني إلى اليسار ... لا تلق بالا ... لم يكن لدى وقت لكي أضع الأولاد في السرير ..

كانا طفلين ، ولدا وبنتا داخل مطبخ غير منظم . لكن الحارسة لم تدخل . كانت تشير إلى مبنى شاهق ، متناسق يقوم في آخر الفناء الرحيب .

– هناك ... ستفهم حالا ...

كان ميجريه يتأمل بفضول هذه المرأة النحيلة الغريبة التي كانت يداها المضطربتان تكشفان عن آثار الحمي .

– مطلوب مفتش مباحث في الهاتف !

هكذا قالوا له على طوار المصوغات قبل فترة وجيزة .

لقد سمع صوتا خافتا . فكرر ثلاث مرات أو أربع مرات قائلا :

– ارفعي صوتك ! .. أنا لا أسمعك ! ..

– لا أستطيع ... إنني أتحدث من دكان التبغ وكانت رسالة متقطعة .

– يجب الحضور فورا إلى رقم «٦١» ميدان الفوج ... أجل ... اعتقد أنبا

Add to Basket

جريمة. ولكن ليت هذا لا يظل خافيا أكثر من ذلك.

وعندئذ راحت الحارسة تشير إلى نوافذ الطابق الأول الكبيرة، وخلف الستائر كانت أشباح تروح وتغدو .

– هناك ....

– الجريمة ؟

– كلا ! مدام سان مارك التى تضع ..... أول ولادة لها .... إنها ليست متينة البنيان .. هل تدرك ذلك ؟

وكان الفناء أشد ظلاما من ميدان الفوج . كان يضيئه مصباح واحد مثبت فى الحائط، ويتكهن المرء بوجود سلم خلف باب زجاجى ، ثم نوافذ مضيئة هنا وهناك.

– ولكن الجريمة ؟

– إليك الآتى فى الساعة السادسة ، انصرف العمال من عند كوشيه ..

– لحظة ، ماذا تقصدين بـ «من عند كوشيه» ؟

– من المباني التى بالداخل ... معمل تحضر به الأمصال .. لابد أنك تعرف ... أمصال الطبيب رفيير .

– هذه النافذة المضيئة ؟

– انتظر ! نحن في الثلاثين من الشهر .. وعلى ذلك ، فقد كان السيد كوشيه موجودا .. فمن عادته أن يبقى بمفرده بعد غلق المكاتب .. لقد رأيته خلال الزجاج، جالسا في كرسيه الموسد .. انظر ..

نافذة من الزجاج الخشن وشبح غريب كأنه لإنسان منكفىء فوق مكتبه

– أهذا هو ؟

– أجل فى حوالي الثامنة ، عندما أفرغت صندوق القمامة ، ألقيت نظرة .. كان يكتب .. إننا نرى بوضوح اليد التى تمسك ريشة أو قلما ...

Add to Basket

– والجريمة في أية ساعة ..؟

– لحظة ! فصعدت لكي أستفسر عن صحة مدام سان مارك.

... ونظرت ثانية وعند نزولي .. كان كما هو الآن ، حتى أنني اعتقدت أنه ... نام ....

– وبدا الجزع على ميجريه

– وبعد ذلك بربع ساعة ....

– أجل ، كان لا يزال في المكان نفسه ! انتقلى إلى المهم ..

– هذا كل ما في الأمـر ... أردت أن أتاكـد ... طرقت باب المكتب .. لم يجب أحد ودخلت .. كان ميتا .. والدم منتشرا في كل مكان ...

– لماذا لم تخبري قسم الشرطة ؟ إنه على بعد خطوتين بشارع بثار ..

– ويحضر الجميع في الزى العسكرى ! ويقلبون البيت . لقد قلت لك إن مدام سان مارك ..

كان ميجريه يضع يديه في جيبيه ، وغليونه بين أسنانه ، وراح ينظر إلى نوافذ الطابق الأول . وانتابه شعور بأن اللحظة تقترب فقد زاد الاضطراب . وسمع صوت باب يفتح ، وخطوات أقدام على السلم ، وظهر في الفناء خيال جانبي (بروفيل) طويل عريض . فراحت الحارسة تتمتم قائلة وهي تشد على ذراع مفتش المباحث :

– السيد سان مارك .. إنه سفير قديم ..

أما الرجل الذى لم تتضح معالم وجهه ، فقد توقف ، ثم عاد إلى السير ، ثم توقف وهو لا يكف عن مراقبة نوافذ شقته .

– لابد أنهم أرسلوه إلي الخارج .. هكذا ، حالا .. تعال .. حسن ! . هاهما والحاكي مرة أخرى !

Add to Basket

وفوق أسرة سان مارك بالضبط ! كانت هناك في الطابق الثاني نافذة صغيرة. أردأ إضاءة . كانت مغلقة وثمة موسيقى حاكي يحزرها المرء أكثر مما يسمعها .

أما الحارسة ، وكانت متأثرة ، محمرة العينين مضطربة اليدين . فقد سارت متجهة إلى أقصى الفناء ، وكانت تشير إلى سلم صغير وباب منفرج .

– سر إلى اليسار .. إنني أفضل ألا أدخل .

* * *

مكتب عادي . أثاث فاتح اللون ، ورق جدران «سادة» . ورجل في الأربعين من عمره ، جالس في كرسي ذي مسندين ورأسه فوق الأوراق المتناثرة أمامه ، لقد أصيب بعيار ناري في صدره .

وأصغى ميجريه السمع .. كانت الحارسة لا تزال في انتظاره في الخارج والسيد سان مارك لا يكف عن ذرع الفناء ، ومن آن لآخر ، تمرق في الميدان عربة تزيد ضوضاؤها من إطباق الصمت الذي كان يتبعها .

لم يمس مفتش المباحث شيئا ، تأكد فقط أن السلاح غير موجود في المكتب ، وبقي ثلاث دقائق أو أربعا ينظر حواليه وهو يسحب أنفاسا قصيرة من غليونه ، ثم خرج بادي الإصرار .

– ماذا ؟

كانت الحارسة لا تزال موجودة . كانت تتكلم بصوت خفيض

– لا شيء ! لقد مات !

– لقد أرسلوا منذ برهة في استدعاء السيد سان مارك إلى فوق ..

كان ثمة هرج ومرج في الشقة . أبواب تصطك . شخص ما يجري .

فتمتم ميجريه وهو يحك قفاه :

– إنها بالغة الضعف !

Add to Basket

– عجبا ! ولكن الأمر لا يتعلق بذلك . هل لديك فكرة عن الشخص الذى يمكن أن يكون قد دخل المكتب ؟

– أنا ؟ .... كيف ؟

– آسف ! من مسكنك ، لابد وأنك ترين السكان وهم يمرون .

– كنت أستطيع ! لو كان المالك ينزلنى فى مسكن مناسب ولا يبالى بالإضاءة .. إننى لا أكاد أسمع بعض الخطوات ، وألمح بعض الأشباح . فى المساء .. وهناك خطوات أتعرفها .

– ألم تلاحظى شيئا غير عادى منذ الساعة السادسة ؟

– أبدا ! لقد أتى جميع السكان تقريبا وافرغوا أوعية قاذوراتهم ... هنا ، إلى يمين مسكنى .. هل ترى صناديق القمامة الثلاثة ؟ ... ليس من حقهم أن يأتوا لإفراغها قبل الساعة السابعة مساء ...

– ولم يدخل أحد من القبو ؟

– كيف تريدنى أن أعرف ؟ ... يبدو أنك لا تعرف العمارة .. هناك ثمانية وعشرون ساكنا ... بالإضافة إلى شركة كوشيه ، حيث الذهاب والإياب الدائمان.

ويسمع وقع أقدام فى الدهليز ، ويلج إلى الفناء رجل يغطى رأسه بقبعة ، ينعطف إلى اليسار ، ويقترب من أوعية القمامة ، ويتناول صندوقا فارغا . وعلى الرغم من الظلام ، فلابد أنه لمح ميجريه والحارسة ، لأنه مكث ثابتا لحظة ، وأخيرا نطق قائلا :

– لا شىء لى ؟

– لا شىء ، يا سيدى مارتان ..

واستعلم ميجريه قائلا :

Add to Basket

– من يكون ؟

– السيد مارتان ، موظف فى مكتب التسجيل ، يسكن مع زوجته فى الطابق الثانى .

– وأية مصادفة جعلت صندوق قمامته ؟ ....

– كلهم تقريبا يفعلون هذا عندما يريدون الخروج ...... ينزلونه عند انصرافهم ويستعيدونه عند رجوعهم ... هل سمعت ؟

– ماذا؟

– يخيل لي .. كصرخة مولود جديد .. فقط لو أنهما ، فوق ، يوقفان هذا الحاكي الملعون ! ... لاحظ أنهما يعلمان تمام العلم أن مدام سان مارك تضع ..

وهرولت ناحية السلم الذى كان ينزله شخص ما .

– ماذا يا دكتور ؟ .... ولد ؟ ..

– بنت .

ومضى الطبيب . وسمع وهو يهيىء العربة للمسير ، وينطلق .

وراح المنزل يواصل حياته اليومية ، الفناء المظلم ، القبو ومصباحه الكئيب، النوافذ المضيئة، وموسيقى الحاكي الغامضة ، كان الميت لا يزال فى مكتبه ، وحيدا ورأسه فوق بعض الرسائل المتناثرة .

وعلى حين فجأة تدوى صرخة ، في الطاق الثاني .. صرخة حادة كأنها نداء يائس . لكن الحارسة لا تفزع لذلك ، وتتهدت وهي تدفع باب مسكنها .

– حسنا ! المجنونة مرة أخرى ..

وصرخت بدورها ، لأن أحد وليدها كان قد هشم طبقا . وعلى الضوء ، رأى ميجريه وجها نحيلا ، مرهقا وجسدا لا يبين عن السن .

Add to Basket

وسألت الحارسة قائلة :

– متى ستبدأ جميع الاجراءات ؟

وفي مواجهة المنزل ، كان دكان التبغ لا يزال مفتوحا ، وبعد دقائق أغلق ميجريه على نفسه كابينة الهاتف وبصوت خافت ، هو أيضا راح يعطى بعض التعليمات .

– نعم ... النيابة .... ٦١ ... تقريبا عند منحنى شارع التورين .... ولتخطر إدارة تحقيق الشخصية .. ألو ! ... أجل سأظل في مكان الحادث ...

وخطا بضع خطوات على الطوار ، ثم ولج بطريقة آلية تحت القبو واستقر أخيرا وسط الفناء عابس الوجه ، مضموم الكتفين من أثر البرد .

وتوقفت عربة أجرة ، لم تكن عربة النيابة بعد وراحت امرأة شابه تجتاز الفناء بخطى حثيثة ، تاركة وراءها أثر أريج عطر ، ثم دفعت باب المكتب .

Add to Basket

(٢)
رجل أنيق

سلسلة كاملة من المناورات الزائفة أدت إلي موقف مضحك ، فما أن اكتشفت المرأة الجثة ، حتى عادت من فورها . وفى إطار الباب لمحت شبح ميجريه الطويل . تجمع ألى للصور : القتيل من ناحية ، والقاتل من ناحية أخرى .

وهى كذلك جاحظة العينين ، وجسمها منقبض ، إذا بها تفتح فاها لتستغيث ، فتسقط حقيبة يدها . ولم يكن لدى ميجريه وقت للجدال لقد جذبها من زراعها وأطبق بيده على فمها .

– صه ! ... أنت مخطئة ! ... أنا شرطة ...

وخلال الفترة التى كانت تتحقق فيها من معنى هذه الكلمات . كانت تجتهد لتخليص نفسها ، فقد كانت امرأة عصبية ، وحاولت أن تعض ، وكالت من الخلف ضربات بكعب حذائها . وطقطق حرير : إنها حمالة الثوب .

وأخيرا هدأ كل شيء . فراح ميجريه يكرر :

– ولا صوت ! أنا من الشرطة .. لا فائدة من إثارة البيت ..

كان ما يميز تلك الجريمة ، هو ذلك الصمت الغريب فى مثل هذه الحال ، ذلك الهدوء ، وأولئك السكان الثمانية والعشرون الذين كانو يواصلون حياتهم العادية حول الجثة .

وأصلحت المرأة من زينتها .

Add to Basket

– هل كنت عشيقته؟

ورمقت ميجريه بنظرة حرون ، وهي تبحث عن دبوس لتشبك حمالتها .

– هل كان بينك وبينه موعد هذا المساء ؟

– في الثامنة في «السيليكت» كانَ المفروض أن نتناول العشاء معا . ونذهب إلى المسرح ..

– ولما لم يأت في الثامنة ، ألم تتصلي به هاتفيا ؟

– بلى ، وقيل لي إن الجهاز مرفوع .

كان كلاهما ينظر إليه في الوقت نفسه فوق المكتب . لابد وأن الرجل قلبه عندما سقط إلى الأمام .

وترامى إلى السمع وقع أقدام في الفناء ، حيث كانت أضعف الأصوات في ذلك المساء تتضخم ، وكأنها تخرج من تحت ناقوس .

وراحت الحارسة تنادي على عتبة الباب ، حتى لا ترى الجثة .

– سيدي مفتش المباحث .. إنهم رجال القسم ..

لم تكن تحبهم . لقد وصلوا أربعة أو خمسة ، دون أن يحاولوا المرور خفية .

وكان أحدهم ينتهي من سرد قصة مسلية . وسأل آخر عندما بلغ المكتب :

– أين الجثة ؟

ولما كان مفتش مباحث القسم غائبا ، فقد ناب عنه مساعده ، فزاد من حرية ميجريه في مواصلة إدارة العمليات .

– دع رجالك في الخارج . إنني في انتظار النيابة . من الأفضل ألا يرتاب السكان في شيء .

وبينما كان المساعد يتجول في المكتب ، عاد والتفت إلى المرأة من جديد .

– ما اسمك ؟

– نين .. نين موانار ، ولكنهم يدعونني دائما نين .

– هل تعرفين كوشيه منذ فترة طويلة ؟

– منذ ستة شهور تقريبا ..

Add to Basket

لم تكن هناك حاجة لتوجيه أسئلة كثيرة إليها . كان يكفي تأملها .. كانت فتاة على قدر غير قليل من الجمال لا تزال فى مطلع حياتها .. زينتها من محل محترم. غير أن طريقتها فى التزين ، ومسك الحقيبة والقفاز ، والنظر إلى الناس بروح عدائية ، كان ذلك يكشف عن «كواليس» أحد الملاهى .

– راقصة ؟

– كنت أعمل في ملهى «الطاحونة الزرقاء»

– والآن ؟

– معه ..

لم تتح لها فرصة للبكاء . لقد مضى كل شيء بسرعة خارقة ولم تتكون لديها بعد فكرة واضحة عن الحقيقة .

– هل كان يعيش معك ؟

– ليس هذا بالضبط ، فهو متزوج .. ولكن ..

– عنوانك ؟

– فندق بيجال .. شارع بيجال .

ولاحظ المساعد قائلا :

– على كل ، لا يمكن الادعاء بأن هناك سرقة !

– لماذا ؟

– انظر ! إن الخزانة وراءه ! وهى ليست موصدة بالمفتاح ، ولكن ظهر القتيل يحول دون فتح بابها :

أما نين ، التى أخرجت من حقيبتها منديلا صغيرا ، فقد راحت تنشق وتسد منخريها .

وفى اللحظة التالية ، تغير الجو . كوابح عربات فى الخارج . وقع أقدام وأصوات فى الفناء . ثم مصافحات بالأيدى ، وأسئلة ومحاورات صاخبة . كانت النيابة قد وصلت وراح الطبيب الشرعي يفحص الجثة . وشرع المصورون فى

Add to Basket

إعداد أجهزتهم . أما بالنسبة لميجريه فقد كانت لحظة بغيضة عليه قضاؤها . فبعد الجمل القليلة اللازمة ، بلغ الفناء ، ويداه فى جيبه ، واشعل غليونه واصطدم فى الظلام ، بشخص ما . انها الحارسة ، التى لم تستطع أن تسلم بترك أناس مجهولين يجولون فى البيت دون أن تشغل بالها بأعمالهم وحركاتهم .

فسألها ميجريه ، متلطفا :

– ما اسمك ؟

– مدام بورسييه .. هل سيبقى هؤلاء السادة طويلا ؟ ..

أنظر ! لم يعد هناك ضوء فى حجرة مدام سان مارك .. لابد وأنها نامت ، المسكينة ..

ولمح مفتش المباحث ، وهو يفحص البيت ، نوراً آخر ، ستاراً فى لون القشدة ، ومن ورائه امرأة . كانت ضئيلة نحيلة . مثل الحارسة . ولم يكن صوتها ليبلغ الآذان . غير أنه لم يكن من الصعب التخمين بأنها كانت فريسة غضب شديد . كانت تارة تبقى ثابتة فى صرامة ، تحدق النظر فى شخص ما لا يظهر للعيان .

وفجأة كانت تتكلم ، وتكثر من أداء الحركات ، وتتقدم بضع خطوات إلى الأمام .

– من تكون ؟

– مدام مارتان .. لقد رأيت زوجها وهو عائد قبل قليل .. إنه كما تعلم ، الذى كان يحمل وهو صاعد صندوق القمامة ... موظف مكتب التسجيل ....

– هل من عادتهما العراك ؟

– إنهما لا يتعاركان .. هى فقط التى تصرخ .. أما هو فلا يجرؤ حتى على فتح فمه .

ومن وقت لآخر ، كان ميجريه يلقى نظرة خلال المكتب الذى يضم نحو عشرة أشخاص يتحركون . ودعا قاضى التحقيق الحارسة ، من عند العتبة .

Add to Basket

– من يقوم بإدارة المعمل ، بعد السيد كوشيه ؟

– الدكتور فيليب . إنه لا يسكن بعيدا : في جزيرة سان لوى ..

– هل لديه هاتف ؟

– بالتأكيد ..

وسمع شخصا يتحدث في الجهاز ، وفي الطابق العلوى ، لم يعد خيال مدام مارتان يظهر على الستار . ومن جهة أخرى ، راح شخص غريب يهبط السلم ، ويخترق الفناء في خطى مسترقة ، ثم يبلغ الشارع ، واستطاع ميجريه أن يتعرف قبعة السيد مارتان ومعطفه المطاط .

كان الوقت منتصف الليل . فأطفأت صاحبتا الحاكى نورهما ولم يعد هناك ما يضيء ، بخلاف المكاتب ، إلا حجرة استقبال عائلة سان مارك في الطابق الأول ، حيث راح السفير القديم يتجاذب الحديث ، بصوت خفيض ، مع المولدة ، في جو تسوده رائحة المستشفيات .

***

وعلى الرغم من تقدم الوقت ، فقد كان السيد فيليب ، لدى وصوله ، حسن الهندام ، ذا لحية مصقولة بعناية ، وكانت يداه مغلفتين في قفاز رمادى خشن الباطن ، كان في الأربعين من عمره تقريبا ، كان نموذجا كاملا للرجل المثقف ، الجاد المهذب . ولا شك أن الخبر أدهشه ، بل أقلقه ، غير أن انفعاله كان يشوبه شيء أشبه بالتحفظ ، وراح يتنهد قائلا :

– مع الحياة التي كان يعيشها ..

– أية حياة ؟

– لن أذكر السيد كوشيه بسوء . وفضلا عن ذلك ، فليس هناك سوء يمكن أن يذكر به لقد كان سيد زمنه ..

Add to Basket

– لحظة : هل كان السيد كوشيه يقوم بإدارة أعماله بنفسه ؟

– لا من قريب ، ولا من بعيد . هو الذي فتح لها الأسواق . ولكن ما أن بدأت تروج . حتى ترك لى جميع المسئوليات . لدرجة أننى كنت أظل خمسة عشر يوما دون أن أراه . خذ مثلا ! اليوم بالذات ، انتظرته حتى الخامسة . فهذه ليلة تسليم المرتبات ، كان عليه أن يحضر لى الأموال التى يلزم دفعها غدا ، حوالى ثلاثمائة ألف فرنك . وفى الخامسة ، اضطررت للانصراف وتركت له مذكره على المكتب .

ووجد المذكرة مكتوبة على الآلة الكاتبة ، تحت يد القتيل، مذكرة عادية : اقتراح بزيادة عامل وفصل أحد الموزعين ، ومشروع للإعلان فى بلدان أمريكا اللاتينية إلخ ...

فسأل ميجريه :

– وعلى هذا فالثلاثمائة ألف فرنك ينبغى أن تكون هنا ؟

– فى الخزانة . الدليل على ذلك ، أن السيد كوشيه فتحها ، فنحن الاثنين ، هو وأنا ، نملك المفتاح والسر ..

ولكن ، لكى تفتح الخزانة لابد من رفع الجثة . فانتظروا حتى تنتهى مهمة المصورين. وكتب الطبيب الشرعى تقريره ، لقد أصيب السيد كوشيه برصاصة فى صدره ، ولما كان الشريان الأورطى قد قطع ، كانت الميتة صاعقة ، ويمكن تقدير المسافة بين القاتل والضحية بثلاثة أمتار ، وأخيراً كانت الرصاصة من العيار الأكثر شيوعا ٦ م ٣٥٠ .

وراح السيد فليب يدلى للقاضى ببعض الإيضاحات .

– إننا لا نملك ، فى ميدان الفوج ، غير المعامل التى تقع خلف هذا المكتب .

وفتح أحد الأبواب ، فظهرت حجرة كبيرة سقفها من زجاج. صفت فيها آلاف من أنابيب الاختبار . واعتقد ميجريه أنه سمع ضوضاء خلف باب آخر .

Add to Basket

– ماذا هناك ؟

– موضـوعات الاخـتـبـار .. وإلى اليـمين ، مكاتب الكتبـة والموظفين ولنا في «بانتان» محلات أخرى ، نصدر منها الجزء الأكبر من إنتاجنا ، فأنت تعلم طبعا أن أمصال الدكتور رفيير معروفة في العالم كله .

– أهو الذي فتح لها الأسواق ؟

– أجل ! لم يكن الدكتور ريفيير ليملك المال ، فقام كوشيه بتمويل أبحاثه ، ومنذ عشر سنوات ، أسس معملا لم تكن له أهمية هذا المعمل الذي تراه ...

– ولا يزال الدكتور رفيير في المعمل ؟

– لقد لقي مصرعه قبل خمس سنوات ، في حادث سيارة .

وأخيراً رفعت جثة كوشيه ، وما أن فتح باب الخزانة ، حتى سمعت صيحات التعجب فكل الأموال التي كانت تحويها قد اختفت ، ولم يبق غير بعض الأوراق الخاصة بالمعمل .

وراح السيد فيليب يشرح الأمور :

– ليس فقط الثلاثمائة ألف فرنك التي أحضرها السيد كوشيه بالتأكيد ، بل ستون ألفا من الفرنكات أودعت عصر اليوم ، وضعتها أنا بنفسي في هذه الخزانة بعد أن أحطتها بحلقة من المطاط :

لم يوجد شيء في حافظة القتيل : أو بالأصح ، وجدت تذكرتان مرقمتان لمسرح المادلين ، أثارت رؤيتهما نحيب «نين» .

– إنهما لنا .. كان من المفروض أن نذهب إلى المسرح معا ، كانت هذه هي النهاية ، فقد زادت الفوضى ، وراح المصورون يطوون أوراق أجهزتهم الكثيرة ، وراح الطبيب الشرعي يغسل يديه من صنبور اكتشفه في صندوق مثبت في حائط. وأبدى كاتب قاضي التحقيق تعبه .

Add to Basket

ومع ذلك ، فعلى الرغم من هذا الاضطراب ، فقد استطاع ميجريه أن يختلي بالقتيل على نحو ما ، لمدة لحظات .

كان رجلا قويا ، أميل إلى القصر ، ممتلىء الجسم ، وكما هي حال نين ، لم يكن يخلو من نوع من الابتذال ، على الرغم من ملابسه بديعة التفصيل ، وأظافره المدرمة ، وقميصه الحريرى المفصل . أما شعره الأشقر فقد أصبح نادرا . ويبدو أن عينيه كانتا زرقاوين ولهما تعبير صبياني بعض الشيء .

وتتهد خلفه صوت يقول :

– رجل أنيق !

كان هذا صوت «نين» التى كانت تبكى حنانا وتستشهد بميجريه ، لعدم اجترائها على التحدث إلى رجال النيابة الرسميين .

– أقسم لك أنه كان نموذجاً للرجل الأنيق .. كان بمجرد أن يشعر أن هناك شيئاً ما يمكن أن يدخل السرور على قلبي .. ليس أنا فقط .. أي شخص ! .. لم أر في حياتي إنسانا يهب «بقشيشا» مثله ... لدرجة أنني كنت ألومه .. كنت أقول له إن الناس يعتبرونه غرا .... عندئذ كان يجيبني :

– وما أهمية ذلك ؟ ...

وسأل مفتش المباحث جادا :

– هل كان مرحا ؟

– أميل إلى المرح .. ولكنه في الواقع لم يكن مرحا ... هل تفهم ؟

هذا أمر يصعب شرحه ... كان يشعر بحاجة إلى الحركة ، وإلى القيام بعمل ما ... إذا مكث هادئاً ، تجهم أو انتابه القلق ...

– وزوجته ؟

– رأيتها مرة ، من بعيد ... لا أستطيع أن أذكرها بسوء ...

- أين يسكن كوشيه ؟

- شارع هوسمان .. ولكن في أغلب الأحيان ، كان يذهب إلى مولان ، حيث يملك فيلا هناك ....

وأدار ميجريه رأسه بسرعة ، فرأى الحارسة لا تجرؤ على الدخول ، وتومىء له بإشارات ، وقد بدا وجهها أكثر بؤسا .

- أرأيت : إنه نازل ...

- من ؟

- السيد سان مارك ... لابد أنه سمع كل تلك الضوضاء ......

ها هو ذا ... يوم كهذا ! تصور ....

وبدا السفير القديم في رداء البيت ، كان يتردد في التقدم . لقد تبين مداهمة النيابة . ومن جهة أخرى ، رأى الجثة فوق النقالة ، تمر بالقرب منه ، وسأله ميجريه قائلا :

- ما هذا ؟

- رجل قتيل، كوشيه .. صاحب معمل الأمصال ..

وشعر مفتش المباحث بأن محدثه قد خطرت له فكرة على حين فجأة كما لو كان قد تذكر شيئا ..

- هل تعرفه ؟

- كلا ... أقصد أنني سمعت عنه ..

- وبعد ؟ ..

- لا شيء ! لا أعرف شيئاً .. متى ..... الـ .

- الجريمة لابد أنها وقعت بين الثامنة والتاسعة ......

وتنهد السيد سان مارك ، وسوى شعره المفضض ، وأومأ برأسه لميجريه ، ثم اتجه نحو السلم الذي يؤدى إلى شقته .

Add to Basket

كانت الحارســة قد انتحت جانبا . ثم انضمت إلى شخص ما كان يروح ويجيء مائلا إلى الأمام ، تحت القبو . وعندما عادت إلى مفتش المباحث سألها قائلا :

– من هذا ؟ ..

– السيد مارتان ... إنه يبحث عن فردة قفاز ضاعت منه ..... ينبغي أن أقول لك إنه لا يخرج أبدا بدون قفاز ، حتى ولو كان ذلك لشراء سجائر على بعد خمسين مترا من هنا .

أما السيد مارتان ، فكان يدور حول صناديق القمامة ، مشعلا بعض الجذوات ، وأخيرا سلم بالصعود إلى مسكنه من جديد .

وفى الفناء ، تصافحت الأيدى . وانصرف رجال النيابة . وتبادل قاضى التحقيق حديثا قصيرا مع ميجريه .

– سأتركك تتصرف ... وطبعا ستحيطنى علما ...

أما السيد فيليب ، وهو دقيق لا يزال كصورة على الطراز الحديث ، فقد انحنى أمام مفتش المباحث قائلا :

– ألم تعد فى حاجة إلى ؟

– سأراك غدا ... أظن أنك ستكون في مكتبك ؟ ..

– كالعادة .... في التاسعة تماما .

وفجأة حلت لحظة مؤثرة ، مع أنها لم تتسم بأدنى حدث . كان الفناء لا يزال غارقا فى الظلام ، مصباح واحد ، ثم القبو بمصباحه المعفر .

وفى الخارج ، تتحرك العربات ، ثم تنطلق فوق الأسفلت فتكشف لحظة أشجار ميدان الفوج بمصابيحها الشديدة .

لم يعد القتيل موجودا ، كان المكتب يبدو وكأنه قد نهب نهبا . لم يفكر أحد فى إطفاء الأنوار ، وكان المعمل مضيئا . كان هناك عمل ليلى شديد .

Add to Basket

وهكذا تجمع ، وسط الفناء ، ثلاثة أشخاص يتباينون فيما بينهم ، لم يكن أحدهم يعرف الآخرين قبل ذلك بساعة واحدة ، ومع ذلك ، فقد يبدو أن صلات غامضة قد جمعتهم .

بل أكثر من ذلك .. كانوا كأفراد عائلة بقوا وحيدين ، بعد انفضاض الجنازة ، عندما انصرف من لا يهمهم الأمر !

لم يكن إلا شعور خفي من جانب ميجريه هو الذي جعله يقول بينما كان يتأمل وجه نين حلو القسمات تارة ، وملامح الحارسة الشاحبة تارة أخرى :

- هل تركت ولديك في السرير ؟

- أجل ... ولكنهما لم يناما ... إنهما قلقان ... يبدو أنهما يشعران ...

وكانت مدام بورسييه تريد أن تسأل سؤالا يكاد يخجلها ، ولكنه كان سؤالا مهما بالنسبة لها :

- هل تعتقد ...

وجالت نظرتها خلال الفناء ، وبدا أنها تتوقف عند جميع النوافذ المطفأة .

- .... إنه .... إنه شخص من المنزل ؟

وهي الآن تحدق النظر في القبو ، ذلك الرواق الذي لا ينفك بابه مفتوحا إلى ما بعد الحادية عشرة مساء ، والذي يصل بين الفناء والشارع ، ويسمح بدخول العمارة لكل مجهول من الخارج .

أما «نين» فقد كانت تتخذ وضعا ممضا ، ومن آن لآخر كانت تسترق النظر إلى مفتش المباحث .

- إن التحقيق سيجيب عن سؤالك يامدام بورسييه ... أما الآن ، فهناك شيء يبدو أكيدا ، وهو أن الذي سرق الثلاثمائة ألف فرنك ليس هو نفسه الذي قتل .... هذا جائز على الأقل ، مادام السيد كوشيه كان يسد الخزانة بظهره .... وبالمناسبة ، هل كان هناك ضوء في المعمل هذا المساء ؟

Add to Basket

– انتظر ! .. أجل أعتقد ذلك .. ولكن ليس مثل الآن .. فلابد أن السيد كوشيه قد أضاء مصباحا أو اثنين لكي يذهب إلى الأحواض التي توجد بين الحجرات .

وانتقل ميجريه ليطفئ الأنوار كلها ، بينما كانت الحارسة لاتزال على العتبة، مع أن الجثة لم تكن موجودة ، وفي الفناء وجد مفتش المباحث «نين» التي كانت في انتظاره . وسمع صوتا في مكان ما فوق رأسه ، صوت شئ يحتك بزجاج .

ولكن النوافذ كلها كانت مغلقة ، والأنوار كلها كانت مطفأة ، شخص ما تحرك، شخص ما كان يسهر في ظلام إحدى الحجرات .

– إلى الغد يا مدام بورسييه ... ساكون هنا قبل فتح المكاتب ....

– سأتبعك ! يجب أن أغلق البوابة ...

وعلى طوار الشارع توهت «نين» قائلة :

– كنت أعتقد أن عندك سيارة .

ولم تحاول تركه . بل أردفت وهي تنظر إلى الأرض :

– في أية جهة تسكن ؟

– على بعد خطوتين من هنا ، شارع ريتشارد لونوار .

– لم يعد هناك «مترو» أليس كذلك ؟

– لا أظن .

– أريد أن أصرح لك بشئ .

– إنني أنصت لك .

وظلت لا تجرؤ على النظر إليه ، ومن خلفهما سمعت الحارسة وهي توصد الباب ، ثم سمعت خطواتها وهي في طريقها إلى مسكنها . لم يكن

Add to Basket

في الميدان إنسان ، وكانت النافورات تغني ودقت ساعة مقر الحكومة معلنة الواحدة .

– سترى أنني أتجاوز الحد .. لست أدرى ماذا ستظن بى ... قلت لك إن ريمون كان كريما للغاية ... كان لا يعرف قيمة المال .. كان يعطيني كل ما أريد ... هل تفهم ؟ ....

– وبعد ؟ ....

– شئ مخجل .. كنت أطلب أقل ما يمكن ... كنت أنتظر أن يفكر فى الأمر ... وفضلا عن ذلك ، فبما أنه كان معى دائما ، فإننى لم أكن بحاجة إلى شئ .. اليوم ، كان من المفروض أن أتناول معه العشاء .. إيه حسنا !

– هل أنت معدمة ؟

فاعترضت قائلة :

– ليس هذا . بل أسوأ ! كنت قد نويت أن أطلب منه مالا هذا المساء . فقد سددت فى الظهر قائمة حسابات ....

كانت تتعذب . ترقب ميجريه ، وهى على استعداد لأن تتقهقر عند أدنى ابتسامة .

– لم أتصور أبدا أنه لن يأتى .. كان لا يزال معى قليل من النقود فى حقيبتى ... وفى انتظاره «بالسيليكت» تناولت محارا ثم «لانجوست» ... واتصلت بالتليفون ... وعندما وصلت إلى هنا فقط ، تبين لى أن معى ما يكفى فقط لدفع أجرة السيارة .

– وفى بيتك ؟

– إننى أنزل فى فندق .....

– إننى أسأل إذا كان لديك بعض المال المدخر .....

– أنا ؟

Add to Basket

وندت عنها ضحكة عصبية :

– ولماذا أنخر ؟ هل كنت أستطيع أن أعلم الغيب ؟ ... حتى لو كنت أعلم فإننى ما كنت لأحب .....

وتنهد ميجريه قائلا :

– تعالى معى حتي شارع بورماشيه . هناك فقط ستجدين سيارة فى هذه الساعة . ماذا ستفعلين ؟

– لا شئ .... إننى ....

ولكنها ارتعشت . فقد كانت في الواقع لا ترتدى غير ثوب من الحرير :

– ألم يكتب وصيته ؟

– وهل أستطيع أن أعرف ، أنا ؟ .... وهل تعتقد أننا نهتم بمثل هذه الأمور ، وعندما يكون كل شئ على ما يرام ؟ .... كان ريمون رجلا أنيقا . إننى ....

كانت تبكي وهى تسير ، دونما ضوضاء . وناولها مفتش المباحث فى يدها ورقة من فئة المائة فرنك ، وأشار لسيارة كانت تمر . وتمتم وهو يدس قبضتيه فى جيبه :

– إلى الغد .. قلت لى فندق بيجال ؟ ....

وعندما رقد في فراشه . لم تستيقظ زوجته إلا أن تغمغم وهى لا تعى تماما :

– هل تناولت عشاءك ؟

Add to Basket

(٣)

ثنائى شارع بيجال

حينما كان ميجريه يغادر منزله . فى حوالى الثامنة صباحا كان عليه أن يختار بين ثلاثة مساع ، يجب أن يقوم بها جميعا فى ذلك اليوم :

زيارة محلات ميدان الفوج واستجواب العمال ، وزيارة مدام كوشيه التى أحيطت علما بالأحداث عن طريق شرطة القسم ، وأخيرا استجواب «نين» من جديد .

وما أن استيقظ من نومه ، حتى اتصل بالشرطة الجنائية وقرأ عليها قائمة بأسماء المنزل ، وكل الأشخاص الذين يتصلون بالمأساة من قريب أو من بعيد ، وإذا مر بمكتبه ، سيجد فى انتظاره معلومات مفصلة .

كانت السوق ، فى شارع ريتشارد لونوار ، تصول وتجول. وكان الجو من البرودة بحيث رفع مفتش المباحث ياقة معطفه القطيفة . وكان ميدان الفوج قريبا ، ولكن لابد للوصول إليه من السير على الأقدام .

وعندئذ ، مر ترام متجها ناحية ميدان بيجال ، الأمر الذى جعل ميجريه يقرر أن يبدأ بزيارة «نين» .

ومن الطبيعى أنها لم تكن قد استيقظت من نومها . وفى مكتب الفندق عُرف ميجريه ، وأثار حضوره القلق .

Add to Basket

– أرجو ألا تكون مقحمة فى قصة مزعجة ، على الأقل ؟ فهى فتاة هادئة!

– هل تستقبل أناسا كثيرين ؟

– لا أحد إلا صديقها

– العجوز أم الشاب ؟

– ليس لها غير صديق واحد . لا هو بالعجوز ولا هو بالشاب ....

وكان الفندق مريحا ، فقد كان هناك مصعد وأجهزة هاتف فى الحجرات. وأنزل ميجريه فى الطابق الثالث ، وطرق باب الشقة رقم «٢٧» فسمع شخصا يتحرك فى سرير . ثم صوتا يهمهم قائلا :

– ماذا هناك ؟

– افتحى يانين !

لابد وأن يدا اخرجت من تحت الأغطية وبلغت المزلاج . فدخل ميجريه فى ظلال يشوبها ضوء . ولمح وجه المرأة المغضن ثم راح يرفع الستائر .

– كم الساعة الآن ؟

– لم تبلغ التاسعة بعد ... لا تنزعجى ....

كانت عيناها شبه مغمضتين بسبب الضوء الشديد ، وعلى طبيعتها ، لم تكن جميلة . وكانت فوق ذلك تبدو أقرب إلى الفتاة الريفية منها إلى الغانية . ومرت بيدها فوق جبينها مرتين أو ثلاث مرات . وأخيرا ، جلست على السرير جاعلة من وسادتها متكأ لها . ثم رفعت سماعة الهاتف :

– أحضروا طعام الإفطار !

ثم قالت لميجريه :

– يا لها من قصة ! ... ألست ناقما علىّ لأننى اقترضت نقودا منك مساء أمس ؟ ... إنه لأمر سخيف ! .... لابد لى من بيع مجوهراتى .....

Add to Basket

- هل تملكين منها الكثير ؟

وأشارت إلى خوان التزين ، وكانت عليه منفضة (طقطوقة) بها بعض الخواتم ، وسوار ، وساعة. تبلغ قيمة الجميع خمسة آلاف فرنك .

وطرق باب الحجرة المجاورة فأصغت «نين» السمع وارتسمت على وجهها ابتسامة مبهمة ، عندما سمعت الطرق يعاد بالخارج في إصرار .

فسأل ميجريه قائلا :

- من ؟

- جيراني ؟ لست أدري ! ولكن لو أمكن إيقاظهما في هذه الساعة ....

- ماذا تعنين ؟

- لا شئ ! إنهما لا يستيقظان أبدا قبل الرابعة بعد الظهر .

- هل يتعاطيان المخدرات ؟

فأومأت بأهدابها بالإيجاب ، ولكنها عجلت وأضافت قائلة :

- أظن أنك لن تستغل ما قلته لك . أليس كذلك ؟

وفي هذه الأثناء فتح الباب ، وكذلك فتح باب حجرة «نين» وبدت عنده خادمة تحمل صينية عليها قهوة باللبن وفطائر .

- تسمح ؟

كانت تحيط بعينيها زرقة ، وكان قميص نومها يكشف عن كتفين نحيلتين وصدر ضئيل غير ذي قوة لصبية ساء نموها .

وبينما كانت تغمس قطع الفطير في القهوة الممزوجة باللبن ، كانت تواصل الإصغاء ، كما لو كانت على الرغم من كل شئ مهتمة بما كان يدور إلى جوارها ومع ذلك فقد قالت :

Add to Basket

– هل سأقحم في هذه القصة ؟ سيكون الأمر مزعجا ، لو تحدثوا عني في الصحف ! وخاصة بالنسبة لمدام كوشيه ....

وأخذ الباب يدق دقات خفيفة متلاحقة فصاحت قائلة :

– ادخل !

كانت امرأة في حوالي الثلاثين من عمرها ، متدثرة في معطف من الفرو فوق قميص نومها ، وكانت عارية القدمين وأوشكت أن تتراجع عندما لمحت ظهر ميجريه العريض ، لكنها تجاسرت وهمهمت قائلة :

– لم أكن أدري أن لديك أحدا !

وانتفض مفتش المباحث عند سماعه لهذا الصوت الرخيم ، ورمق المرأة التي أعادت غلق الباب ، فرأى وجهها لا لون له ، ذا أجفان منتفخة ، ورنت له «نين» بنظرة أيدت رأيه . فقد كانت هي فعلا الجارة التي تتعاطى المخدرات .

– ماذا حدث لك ؟

– لاشئ ! روجيه لديه زوار .... عندئذ ... سمحت لنفسي ....

وجلست على الأرض بجانب السرير خاملة ، وتنهدت قائلة كما فعلت «نين» :

– كم الساعة الآن ؟

فقال ميجريه :

– التاسعة ! يبدو أنك لا تحبين «الكوكايين» ؟

– ليس هذا بكوكايين .. إنه أثير ... روجيه يرى أنه أفضل وأن ....

Add to Basket

كانت تشعر بالبرد فقامت لتلتصق بالمدفأة ، ونظرت إلى الخارج وقالت :

– لن تلبث السماء أن تمطر ....

كل هذا كان مشوبا بانقباض ويأس . وعلى خوان التزين كانت الماشطة مليئة بالشعر المقصوف ، وكان جورب «نين» ملقى على الأرض .

– إنني أزعجكما ، أليس كذلك ؟ ... ولكن الأمر يبدو مهما . إنه يتعلق بوالد روجيه ، الذى مات .....

كان ميجريه ينظر إلى نين فلاحظ أنها قطبت ما بين حاجبيها فجأة كمن مرت بخاطره فكرة ، وفى نفس الوقت ، راحت المرأة التى انتهت من كلامها قبل قليل ، ترفع يدها إلى ذقنها ، وهى تهمهم :

– انظرى ! انظرى !

وسأل مفتش المباحث قائلا :

– هل تعرفين والد روجيه ؟

– لم أره على الإطلاق ... ولكن .... انتظر ! ....

– أخبرينى إذن يا نين ...... ألم يحدث لصديقك شئ ؟

فتبادل مفتش المباحث ونين نظرة .

– لماذا ؟

– لا أعرف .... إن الأمر معقد بعض الشئ .... لقد تذكرت من فورى أن روجيه قال ذات يوم إن اباه يتردد على الفندق .... وكان هذا الأمر يسليه ... غير أنه كان يفضل ألا يصادفه ، وذات مرة عندما كان أحد الأشخاص يصعد السلم ، أسرع بدخول الحجرة .... ومن ثم يبدو أن ذلك الشخص دخل هنا ....

وكفت «نين» عن الأكل ، كانت تضيق بالصينية على ركبتيها وكان وجهها

Add to Basket

يكشف عن قلقها .

– ابنه ؟

قالتها بهدوء، ونظرها معلق بإطار النافذة الزيتى ، وصاحت الأخرى :

– وعلى ذلك ! ... وعلى ذلك ، فإن صديقك هو الذى مات ! ..... يبدو أن فى الأمر جريمة ....

فاستفسر ميجريه قائلا :

– هل روجيه يلقب بكوشيه ؟

– روجيه كوشيه ، أجل !

فصمت ثلاثتهم مضطربين .

وبعد لحظة طويلة سمعت خلالها همهمة صوت فى الحجرة المجاورة ، استطرد مفتش المباحث قائلا :

– ماذا يعمل ؟

– ماذا تقصد ؟

– ما وظيفته ؟

فقالت المرأة فجأة :

– أنت من الشرطة ، أليس كذلك ؟

كانت مضطربة ، وربما أوشكت أن تلوم «نين» لأنها استدرجتها إلى فخ ... فقالت نين وهى تخرج إحدى ساقيها من السرير وتميل لتجذب جوربها :

– إن مفتش المباحث لطيف للغاية !

– كان ينبغى على أن أخمن ذلك ! ... ولكنك كنت على علم قبل أن .... أن أدخل..

Add to Basket

فقال ميجريه :

– اننى لم أسمع بروجيه على الإطلاق ! والآن ، ينبغى عليك أن تزويدينى ببعض المعلومات عنه .....

– أنا لا أعرف شيئا .... فلم يكد يمضى أسبوعان ونحن معا ....

– وقبل ذلك ؟

– كان بصحبة صهباء فارعة تزعم بأنها تعمل مدرمة للأظافر ...

– هل له عمل ؟

وكانت هذه الكلمة كافية لتزيد من حدة الضيق .

– لست أدرى ....

– معنى هذا أنه لا يقوم بأى عمل .... هل لديه نزوة ؟ ....

هل ينفق بسخاء ؟

– كلا ! إننا نأكل دائما فى مطعم محدد الأسعار ، بست فرنكات.........

– هل يتحدث عن أبيه فى أغلب الأحيان ؟

– لم يتحدث عنه غير مرة واحدة ، كما قلت لك ....

– هل تستطيعين أن تصفى لى زائره ؟ هل سبقت لك مقابلته ؟

– كلا ! إنه رجل .... كيف أقول ؟ لقد ظننته محضرا ، وعندما جئت إلى هنا اعتقدت أن الأمر كذلك وأن روجيه مدين ....

– وهل هو حسن الهندام ؟

– انتظر ، لقد رأيت قبعته ، ومعطفا أسمر ، وقفازا ....

كان يوجد بين الحجرتين باب اتصال يحجبه ستار ويرجح أنه مسدود ، وكان فى استطاعة ميجريه أن يلصق به أذنه ويسمع كل شئ ، غير أنه كره أن يفعل ذلك أمام المرأتين .

Add to Basket

وارتدت نين ثيابها ، واكتفت ، استعاضة عن الغسيل ، بتمرير منشفة مبللة فوق وجهها . كانت عصبية . وكانت حركاتها مضطربة . كان المرء يشعر أن الأحداث تفوقها ، وانها الآن تتوقع المصائب جميعا ، وأنها لا تستشعر قوة للمقاومة ، بل ولا حتى لمحاولة الفهم .

أما الأخرى فكانت أكثر هدوءا ، وربما كان ذلك لأنها كانت لاتزال تحت تأثير الاتير أو ربما لأنها كانت أكثر خبرة بمثل هذه الأمور .

– ما اسمك ؟

– سيلين .

– هل لك مهنة ؟

– كنت أعمل مصففة شعر فى المنازل .

– مقيدة بسجل شرطة الآداب ؟

فهزت رأسها بالنفى ، دون أن تشعر بالإهانة . وكانت هناك همهمة صوت لاتزال تصل الآذان من الجانب المجاور .

أما نين ، وكانت قد ارتدت ثوبا ، فقد كانت تتأمل الحجرة من حولها .. وفجأة راحت تنفجر منتحبة ، وتقول وهى تتلعثم :

– يا إلهى ! يا إلهى !

فقالت سيلين بهدوء :

– يالها من قصة غريبة ! وإذا كان فى الأمر جريمة حقا فسيكون هناك ما يزعجنا ..

– أين كنت بالأمس فى حوالى الثامنة مساء ؟

ففكرت :

– انتظر ! .. الثامنة .. إية حسن ! كنت فى «السيرانو» .

– وهل كان روجيه فى صحبتك ؟

Add to Basket

– كلا .. إننا لا نستطيع أن نكون معا طوال الوقت .. لقد التقيت به عند منتصف الليل فى دكان تبغ بشارع لافونتين ..

– وهل أخبرك من أين أتى ؟

– لم أساله شيئا ..

ومن خلال النافذة ، كان ميجريه يلمح ميدان بيجال ، وحديقته الصغيرة ولافتات الحانات . وفجأة ، إذا به ينتصب ، ويسير ناحية الباب .

– عليكما بانتظارى ، كلاكما !

وخرج ، وطرق الباب المجاور، وسرعان ما أدار «المقبض» .

كان هناك رجل يرتدى المنامة ويجلس فى الكرسى الوحيد الموسد الذى يوجد في الحجرة ، وعلى الرغم من النافذة المفتوحة كانت رائحة الاتير المنفرة تسود الحجرة . وكان هناك رجل آخر يسير وهو يكثر من الحركات . كان هذا هو السيد مارتان . الذى كان ميجريه قد صادفه مرتين عشية الأمس ، فى فناء ميدان الفوج.

★★★

– ها قد وجدت قفازك !

وكان ميجريه ينظر إلى يدى موظف التسجيل ، الذى غدا شاحبا حتى اعتقد مفتش المباحث لحظة أنه لن يلبث أن يفقد وعيه . كانت شفتاه ترتعشان . كان يحاول أن يتكلم دون أن يوفق إلى ذلك .

– إننى .. إننى ..

لم يكن الشاب حليق الذقن ، كان فى لون الورق المضوغ . وكانت عيناه تحوطهما هالة حمراء ، وشفتاه رخوتين تكشفان عن خوره . كان مشغولا بشرب الماء بشراهه من كوب بين أسنانه .

Add to Basket

– هدىء من روعك ، يا سـيـد مـارتان ! لم أكن آمل أن أقـابلك هنا وبخاصة في وقت من المفروض أن يكون مكتبك فيه مفتوحا منذ فترة طويلة .

كان يراقب الرجل الطيب من أخمص قدمه حتى أم رأسه . وكان ينبغي عليه بذل مجهود حتى لا تأخذه الشفقة به ، فقد كان المسكين يبدى ارتباكا شديدا .

ومن حذائه حتى رباط عنقه الذى يحيط بياقة من البلاستيك كان السيد مـارتان يمثل النمـوذج الكاريكاتورى للمـوظف ، موظف مـتكلف فى نظافتـه وفاضل ، ذى شاربين أتقن تلميعهما ، دونما ذرة من تراب فوق مـلابسه ، وربما اعتقد أن خروجه بدون قفاز أمر معيب .

والآن إنه لايدرى كيف يتصرف حيالهما ، حيال يديه ، وكانت نظرته تنقب فى أركان الحجرة التى تسودها الفوضى كما لو كان يبحث فيها عن إلهام .

– هل تسمح لى بسؤال يا سيد مـارتان ؟ منذ متى وأنت تعرف روجيه كوشيه؟

لم يكن الرعب هو الذى حل ، وإنما الخيال .

– أنا .... ؟

– أجل ..... أنت !

– منذ ..... منذ زواجى !

كان يقول ذلك كما لو كان الأمر بديهيا لايحتاج إلى توضيح .

– لست أفهم .

– إن روجيه هو ابن زوجتى .

– وابن ريمون كوشيه ؟

Add to Basket

- أجل .. مادام ...

لقد استعاد اطمئنانه .

- كانت زوجتي هي الزوجة الأولى لكوشيه .. وقد أنجبت منه ابنا ، وهو روجيه .. وعندما انفصلت عن زوجها ، تزوجتها أنا ..

لقد أحدث هذا البيان تأثير عاصفة شديدة سريعة أزاحت سحبا من سماء . لقد تغير على أثره بيت ميدان الفوج ، وتغيرت طبيعة الأحداث ، فوضحت بعض النقاط وعلى النقيض من ذلك أصبح بعضها الآخر مدعاة لبلبلة الأفكار وإقلاقها أكثر من ذي قبل حتى أن ميجريه لم يعد ليجرؤ على الكلام . كان في حاجة إلى تنظيم أفكاره . كان ينقل نظره بين الرجلين بقلق متزايد ..

لقد سألته حارسة البيت ، في الليلة نفسها ، وهي تنظر إلى جميع النوافذ التي تبدو للعيان من الفناء :

- هل تعتقد أنه شخص من البيت ؟

وكانت نظرتها تتعلق بالقبو ، كانت تأمل أن يكون القاتل قد ولج منه ، وأن يكون هذا الشخص من الخارج .

إيه كلا ! كانت المأساة محصورة في البيت ! ولم يكن ميجريه قادرا على تعليل ذلك ، ولكنه كان واثقا منه .

أية مأساة ؟ إنه لايدرك منها شيئا !

كل ما هنالك ، أنه كان يشعر بأن خيوطا خفية تمتد وتصل بين جهات مختلفة في المكان ، فتخرج من ميدان الفوج إلى فندق شارع بيجال هذا ، ومن شقة آل مارتان ، إلى مكتب المصل التابع للدكتور ريفير ، ومن حجرة «نين» إلى حجرة ذلك الثاني الخامل بتأثير الأثير .

Add to Basket

إن أكثر ما كان يثير القلق فى الموضوع ، ربما كان مشهد السيد مارتان وهو ملقى فى هذه المتاهة كالنحلة الضالة . كانت يداه لاتزالان مغلفتين فى القفاز ، وكان معطفه فى حد ذاته يمثل له برنامج حياة كاملة . وكانت نظرته قلقة تسعى إلى التعلق بمكان ما دون أن توفق إلى ذلك . وراح يتلعثم قائلا :

– جئت لاخبر روجيه ..

– أجل ..

كان ميجريه ينظر إليه فى عينيه ، نظرة هادئة عميقة ، وهو يكاد يتوقع لحدثه أن يتضاءل من الكرب .

– لقد قالت لى زوجتى إن من الأفضل أن نكون نحن الذين ..

– فاهم !

– إن روجيه سريع الـ ....

فأكمل ميجريه قائلا :

– سريع التأثر ، شاب عصبى !

وراح الشاب بعد أن شرب كوب الماء الثالثة ، يرمقه بنظرة حاقدة .

كان فى الخامسة والعشرين ، غير أن ملامحه كانت قد كلت ، وذبلت منه الجفون . كان لايزال جميلا ، جمالا من شأنه أن يفتن بعض النساء .

كانت بشرته كامدة . كان كل ما فيه يتسم بالرومانسية ، حتى مظهره المتعب الذى يبدو عليه شىء من الاشمئزاز .

– قل لى يا روجيه ، هل ترى والدك فى أغلب الأحيان ؟

– فى بعض الأحيان !

– أين ؟

Add to Basket

كان ميجريه يتطلع إليه بنظرة قاسية .

– في مكتبه .. أو في المطعم ..

– متى رأيته لآخر مرة ؟

– لا أعرف .. قبل عدة أسابيع .

– وهل طلبت منه مالا ؟

كما يحدث دائما !

– باختصار ، كنت تعيش على نفقته ؟

– لقد كان من الثراء بحيث ..

– لحظة ! أين كنت بالأمس فى حوالي الثامنة مساء ؟

ولم يبد ترددا :

– في مطعم السيليكت .

قالها مصحوبة بابتسامة ساخرة ، تعني :

– لعلك تعتقد أنني لا أدرى إلى أين تريد أن يؤدى ذلك !

– ماذا كنت تفعل في السيليكت ؟

– كنت فى انتظار أبى !

– إذن ، فقد كنت فى حاجة إلى مال ! وكنت تعرف أنه سيأتى إلى السيليكت..

– إنه يكون هناك كل ليلة تقريبا بصحبة عشيقته ! وفوق ذلك فقد سمعته فى العصر يتحدث فى الهاتف .. لأننا نسمع ما يقال فى الجانب المجاور ..

– وعندما وجدت أن والدك لم يحضر ، ألم تخطر لك فكرة بالذهاب إليه فى مكتبه بميدان الفوج ؟

– كلا ... !

Add to Basket

والتقط ميجريه من فوق المدفأة صورة فوتوغرافية للشاب ، كانت تحوطها صور نسائية عديدة . ووضعها في جيبه وهو يتمتم قائلا :

– تسمح ؟

– لو كان هذا يسرك !

وراح السيد مارتان يقول :

– ألا تعتقد ؟ ...

– إنني لا أعتقد شيئا . إن هذا يجعلني أفكر في توجيه بعض الاسئلة إليك . ماهي العلاقات بين بيتك وبين روجيه ؟

– كان لا يأتي في أغلب الأحيان .

– وعندما كان يأتي ؟

– كان لا يلبث غير دقائق معدودة ..

– وهل أمه على علم بطبيعة حياته ؟

– ماذا تريد أن تقول ؟

– لا تتغابى ، يا سيد مارتان ! هل تعلم زوجك أن ابنها يعيش في «مونمارتر» بدون أي عمل ؟

وراح الموظف ينظر إلى الأرض ضيقا . وقال متنهدا :

– لقد حاولت كثيرا أن أدفعه إلى العمل !

وفي هذه المرة ، بدأ الشاب يدق فوق المنضدة في جزع .

– أظنك تلاحظ أنني لازلت في المنامة وأن ...

– هل تسمح فتخبرني إذا كنت رأيت بالأمس أحدا ممن تعرفهم في السيليكت .

– رأيت نين !

– وهل تحدثت إليها؟

Add to Basket

– عفوا ! إنني لم أوجه إليها حديثا على الإطلاق !

– وفي أي مكان كانت تجلس ؟

– إلى المائدة الثانية إلى يمين «البار» .

– أين عثرت على قفازك يا سيد مارتان ؟ إذا لم تخني ذاكرتي ، فلقد كنت تبحث عنه في تلك الليلة بالقرب من صناديق القمامة في الفناء ..؟!

فندت عن السيد مارتان ضحكة قصيرة عسيرة .

– كان في البيت ! تصور أنني خرجت «بفردة» واحدة ولم ألحظ ذلك ..

– عندما غادرت ميدان الفوج ، أين ذهبت ؟

– تنزهت .. على طول الطوار .. فقد كنت .. كنت أشعر بصداع .

– هل تتنزه غالبا في المساء ، بدون زوجتك ؟

– أحيانا !

كان يتعذب ، ولم يكن يدري ماذا يصنع بيديه المغلفتين في القفاز .

– وهل أنت ذاهب الآن إلى مكتبك ؟

– كلا ! لقد اعتذرت بالهاتف فأنا لا أستطيع أن أترك زوجتي في ..

– إيه حسن ! اذهب إذن لتكون إلى جوارها ..

ومكث ميجريه . وراح الرجل الطيب يبحث عن طريقة لائقة للاستئذان .

– إلى الملتقى ، يا روجيه ..

قالها وهو يبتلع لعابه ..

– أعتقد .. أعتقد أن من الأفضل أن تزور والدتك ..

ولكن روجيه اكتفى برفع كتفيه والتطلع إلى ميجريه بجزع ، وسمعت ضوضاء السيد مارتان وهي تتلاشى على السلم .

كان الشاب لا يقول شيئا . وراحت يده ، بطريقة آلية ، تجذب زجاجة من

Add to Basket

الأثير . كانت فوق منضدة السرير ، وتضعها بعيدا .

وسأله مفتش المباحث بهدوء :

– أليست لديك أية تصريحات تريد الإدلاء بها ؟

– كلا !

– لأنه لو كان لديك ما تريد أن تقوله ، فمن الأفضل أن تدلي به الآن على أن تدلي به فيما بعد ..

– لن يكون لدي ما أقوله لك فيما بعد .. بلى ! ، هناك شيء أريد أن أقوله لك حالا : وهو أنك تدس نفسك في الأمور أكثر من اللازم ..

– طبعا ، مادمت لم تر والدك مساء أمس ، فلابد أنك الآن بدون مال ؟

– هو ماتقول !

– وأين ستجد المال ؟

– لا تشغل بالك بشأني .. أرجوك .. تسمح ؟ ...

وراح يصب بعض الماء في الطست ليغتسل .

وبثبات ، شرع ميجريه يخطو بضع خطوات في الحجرة ، ثم خرج ، ودخل الحجرة المجاورة ، حيث كانت المرأتان في انتظاره . وفي هذه المرة كانت سيلين هي التي تبدو أكثر اضطرابا . أما «نين» وكانت جالسة في الكرسي الموسد (الفوتوي) . فقد كانت تقرض منديلا في هدوء . وهي تتطلع إلى فراغ النافذة بعينيها الواسعتين الحالمتين .

وراحت عشيقة روجيه تسأل قائلة :

– وماذا بعد ؟

– لاشيء ! تستطيعين الانصراف .

– هل والده فعلا هو الذي ؟ ..

Add to Basket

ثم قالت ، فجأة ، وقد تغضن جبينها :

– ولكنه عندئذ ، سيرث ؟

وانصرفت وهي تفكر .

وعلى طوار الشارع ، سأل ميجريه رفيقته .

– إلى أين أنت ذاهبة ؟

فندت عنها حركة مبهمة غير مكترثة ، ثم قالت :

– إنني ذاهبة إلى ملهى «الطاحونة الزرقاء» لارى إذا كانوا يرغبون في إعادتي إلى العمل ..

كان يرنو إليها باهتمام ودود .

– هل كنت تحبين كوشيه كثيرا ؟

– قلت لك ذلك بالأمس : لقد كان نموذجا للرجل الأنيق .. والمرء لا يعثر على أمثاله كثيرا ، أقسم لك ! .. عندما أفكر أن شخصا قذرا قد ...

وسالت عبرتان ، ثم لا شيء بعد ذلك .

– هنا ! قالتها وهي تدفع بابا صغيرا خصص لدخول الفنانين . وكان ميجريه يشعر بالظمأ فدلج إلى «بار» لكي يتناول قدحا من النبيذ ، وكان عليه أن يذهب إلى ميدان الفوج . إلا أن رؤية جهاز الهاتف جعلته يتذكر أنه لم يمر بعد بطوار المصوغات ، وأنه ربما كان هناك بريد عاجل في انتظاره فطلب خادم المكتب :

– أهذا أنت يا جان ؟ .. لا شيء لي ؟ .. كيف ؟ .. سيدة تنتظر منذ ساعة ؟ .. تلبس الحداد ؟ .. أليست هي مدام كوشيه ؟ .. هيه ؟ .. حرم السيد مارتان ؟ .. أنا آت ؟

حرم السيد مارتان في زي الحداد ! وتنتظره منذ ساعة في ردهة مركز

Add to Basket

الشرطة القضائية .

كل ما يعرفه ميجريه عنها لايعدو خيالا من الظل : ذلك الخيال الغريب الذى رآه بالأمس ، على ستار الطابق الثانى ، عندما كان يتحرك وقد راحت شفتاه تضطربان فى تقريع شنيع .

– إن هذا يقع فى أغلب الأحيان ! كذلك قالت له حارسة البيت .

وموظف التسجيل الطيب المسكين ، الذى نسى قفازه ، وراح يتنزه بمفرده وسط ظلام الأرصفة ..

وعندما غادر ميجريه الفناء ، فى الواحدة صباحا ، كانت هناك ضوضاء تصدر عن زجاج نافذة.!

وصعد سلم مركز الشرطة القضائية المترب فى هدوء ، وفى طريقه شد على أيدى بعض الزملاء وأنفذ رأسه من خلال باب الردهة المنفرج .

كانت هناك عشرة كراسى مبطنة بالقطيفة الخضراء . ومنضدة أشبه بمنضدة البلياردو . على الحائط لوحة الشرف : مائتا صورة تمثل مفتشين قتلوا أثناء تأدية الخدمة وعلى الكرسى الماثل فى الصدارة ، تجلس سيدة ترتدى السواد ، متوترة للغاية ، تحمل حقيبتها فى إحدى يديها وتستقر يدها الأخرى على مقبض مظلة . شفتان دقيقتان . ونظرة حادة تصوبها أمامها . ولم تأت حراكا عندما شعرت بأن هناك من يلاحظها . وبهذه الملامح الجامدة ، كانت تنتظر .

Add to Basket

(٤)
نافذة الطابق الثانى

وسبقت ميجريه بتلك الأنفة العدائية التى تسم أولئك الذين يجدون فى سخرية الآخرين شر البلايا.

- تفضلى بالجلوس، ياسيدتى!

كان ميجريه يبدو ثقيلا، عيناه مبهمتان، عندما استقبلها وعين لها كرسيا ينيره مستطيل النافذة، فاستقرت فيه متخذة الوضع الذى كانت عليه فى الردهة قبلا.

وضع وقور، بلا شك! ووضع معركة أيضا! لم تكن عظام كتفيها لتلمس المسند، وكانت يدها التى يغلفها قفاز من الخيوط السوداء متأهبة للتحرك دون أن تدع الحقيقة التى ستتأرجح فى الهواء لو حدث ذلك.

- أظنك، ياسيدى المفتش، تتساءل لماذا أنا..

- كلا!

لم تكن شراسة من جانب ميجريه أن حيرها بهذه الطريقة منذ أول احتكاك.. ولم تكن مصادفة كذلك. كان يعرف أن ذلك أمر ضرورى، واعتدل، هو، فى كرسى المكتب، كان مطروحا إلى الوراء، فى وضع مبتذل، يدخن غليونه فى أنفاس قصيرة شرهة.

Add to Basket

وارتجفت مدام مارتان، أو بالأحرى تصلبت كتفها.

– ماذا تريد أن تقول؟ إننى أعتقد أنك لم تكن تنتظر أن..

– بلى!

وابتسم لها ابتسامة ساذجة، وفجأة راحت الأصابع تقلق فى القفاز الأسود المنسوج وبنظرة حادة، جابت الأفق وطرق مدام مارتان إلهام فقالت:

– هل تلقيت خطابا من مجهول؟

كانت تؤكد وهى تستقر، وقد اتخذت مظهر الواثقة مما تقول، الأمر الذى جعل المفتش يبتسم ابتسامة عريضة، لأن هذا أيضا كان سمة مميزة تتفق وكل ما كان يعرفه عن محدثته.

– لم أتلق خطابات من مجهول.

فهزت رأسها متشككة.

– لاتحاول أن تقنعنى.

وكانت تبدو ملائمة قدر المستطاع لموظف التسجيل الذى تزوجته.

كان المرء لايجد صعوبة فى أن يتخيلهما، عصر الأحد، وهما يرتقيان الشانزليزيه: ظهر مدام مارتان الأسود العصبى، وقبعتها المنحرفة دائما بسبب الشعر المتجمع فوق رأسها، ومشيتها العجلى التى تنم عن امرأة نشيطة، وحركة ذقنها التى تشير إلى كلمات قاطعة.. والمعطف المطاط الخاص بالسيد مارتان، وقفازه الجلدى وعصاه، ومشيته المطمئنة، الهادئة ومحاولاته فى التسكع والتوقف أمام المعروضات..

– هل كان لديك ملابس حداد؟

هكذا دمدم ميجريه بمكر وهو يطلق نفخة ضخمة من الدخان..

– لقد توفيت أختى قبل ثلاث سنوات.. أقصد أختى المقيمة فى «بلوا» التى تزوجت من مفتش مباحث.. وهكذا ترى أن..

Add to Basket

- أن؟

لا شيء! كانت تحذره! كان الوقت مناسبا لتشعره بأنها ليست كأية امرأة. ومن جهة أخرى، بدت عصبية، ذلك لأن الحديث الذي كانت قد أعدته لم يعد يجدي فتيلا بسبب ذلك المتفتش الثقيل.

- متى علمت بموت زوجك الأول؟

- طبعا.. صباح اليوم، مثل الجميع! إن الحارسة هي التي أخبرتني أنك تتولى هذا الأمر، ولما كان موقفي حساسا.. لن تستطيع أن تدرك.

- بلى! وبالمناسبة، ألم يقم إبنك بزيارتك عصر الأمس؟

- بماذا تريد أن تلمح؟

- لاشيء. مجرد سؤال.

- تستطيع الحارسة أن تخبرك بأنه لم يأت لزيارتي منذ ثلاثة أسابيع على الأقل.. كانت تتكلم بجفاء. فازدادت نظرتها عدوانية. ألم يخطيء ميجريه إذ لم يدعها تلقي حديثها؟

- إنني سعيدة بمسعاك لأنه يدل على رقتك و...

لقد غيرت كلمة «رقة» وحدها شيئا ما في عيني المرأة الرماديتين، فأحنت رأسها تعبيرا عن الشكر ثم قالت:

- هناك مواقف شديدة الصعوبة! لا أحد يدرك ذلك. حتى زوجي. الذي يشير علي بعدم ارتداء الحداد! وأنت تلاحظ أنني ارتديه دون أن أرتديه، فلا خمار! ولا كريب! مجرد ملابس سوداء..

وراح يؤيد بذقنه، ووضع غليونه فوق المنضدة.

- ليس لأننا منفصلان، ولأن روجيه أشقاني، إنني..

واستعادت اطمئنانها، وراحت تقترب بلا شعور من الحديث المعد:

- وبخاصة في منزل كبير كهذا، به ثمان وعشرون عائلة! وأية عائلات!

Add to Basket

أنا لا أتحدث عن سكان الطابق الأول! وزيادة على ذلك! إذا كان السيد سان مارك قد تلقى تربية طيبة فإن زوجته قد لاتحيي الناس نظير ذهب العالم كله.. عندما يتلقى المرء تربية محترمة، فمن الصعب عليه أن..

– هل ولدت في باريس؟

– كان أبي بائع حلوى في «ميو»..

– في أية سن تزوجت من السيد كوشيه؟

– كنت في العشرين من عمري.. لاحظ أن والديّ ماكانا ليدعاني أخدم في المحل.. في ذلك العصر كان كوشيه يتجول.. كان يؤكد أنه يكسب بسخاء، وأنه قادر على إسعاد امرأة..

وراحت نظرتها تجمد، وتتأكد أن ليس ثمة تهديد بالسخرية عند ميجريه.

– أفضل ألا أقول كم قاسيت معه!.. كل الأموال التي كان يجمعها، كان يفقدها في المضاربات المزرية.. كان يدعي أنه سيصبح غنيا.. وكان يغير مكانه ثلاث مرات في العام، لدرجة أنه عندما ولد ابني لم يكن لدينا درهم ندخره، وكان على أمي أن تدفع ثمن القماط..

وأخيرا وضعت مظلتها قبالة المكتب، وتصور ميجريه أنها ستتحدث بالحدة الجافة التي كانت تتحدث بها عشية الأمس، عندما لمح خيال ظلها على الستار.

– إذا كان المرء لايستطيع أن يعول امرأة، فلا ينبغي له أن يتزوج! هذا هو ما أقوله! وبخاصة إذا كان الشخص لايتمتع بشيء من عزة النفس. لأنني أكاد لا أستطيع أن أحصي لك جميع المهن التي مارسها كوشيه.. كنت أطلب إليه أن يبحث عن مركز محترم، بمعاش مضمون، في الحكومة، مثلا! على الأقل، لو حدث له شيء، لا أبقى أنا بلا شيء.. ولكن كلا! لقد بلغ به الأمر أن يتبع سباق فرنسا للدراجات لست أدري بأية صفة.. كان هو

Add to Basket

الذي يرحل في المقدمة ويتولى مهمة التموين أو شيئا من هذا القبيل! وكان يعود بلا مليم واحد. هذا هو الرجل! وهذه هي الحياة التي عشتها.

- أين كنتما تسكنان؟

في إحدى الضواحي! لأننا لم نكن نستطيع دفع إيجار مسكن في المدينة. هل عرفت كوشيه؟ لم يكن ليبالي بذلك، هو، ولم يكن ليخجل من ذلك! ولم يكن قلقا! كان يدعي أنه ولد ليجني أموالا كثيرة وأنه سيجنيها.. وبعد الدراجات، أتي دور سلاسل الساعات، كلا! إنك لاتستطيع أن تتكهن. سلاسل ساعات يبيعها في أسواق عامة ياسيدي! وكانت أخواتي لايجرؤن على الذهاب إلى سوق «نويي» خشية أن يقابلنه على هذه الحال..

- هل أنت التي طلبت الانفصال؟

وأطرقت برأسها في حياء، غير أن ملامحها كانت لاتزال مشدودة.

- كان السيد مارتان يسكن العمارة التي كنا نسكنها.. كان أكثر شبابا منه الآن.. وكان يتمتع بمركز محترم في الحكومة.. وكان كوشيه يتركني دائما وحيدة ليجرى وراء المغامرات.. أوه! فلم يكن هناك غير حل صحيح ولائق!.. وقد أبلغته لزوجي.. وكان طلب الانفصال باتفاق متبادل بسبب التنافر في الطباع.. وكان على كوشيه أن يدفع لي فقط نفقة من أجل الطفل.. وانتظرنا مارتان وأنا، عاما قبل أن نتزوج..

وهنا راحت تتحرك فوق الكرسي.. وراحت أصابعها تجذب مقبض الحقيبة الفضي.

- وكما ترى، لم يكن لي حظ على الإطلاق.

وفي البداية لم يكن كوشيه يسدد النفقة بانتظام! ومن الصعب بالنسبة لامرأة حساسة أن ترى زوجها الثاني يقوم بالإنفاق على طفل ليس ابنه.

Add to Basket

كلا! لم يكن ميجريه نائما، على الرغم من عينيه المسبلتين، والغليون المطفأ الذي وضعه بين أسنانه.

لقد غدا الأمر أكثر كدرا. فقد اغرورقت عينا المرأة، وبدأت شفتاها تضطربان بطريقة تثير القلق.

– لم يكن هناك أحد غيري يعرف أنني قاسيت.. قمت على تعليم روجيه.. أردت له أن يحصل على ثقافة محترمة.. لم يكن ليشبه أباه.. كان عطوفا، حساسا.. وعندما بلغ السابعة عشرة وجد له مارتان مكانا في أحد البنوك لكي يتعلم مهنة.. لكنه قابل كوشيه. في هذه الأثناء لا أدري أين..

– هل اعتاد أن يطلب أموالا من أبيه؟

– لاحظ أن كوشيه كان يرفض لي كل طلب! كان كل شيء من أجلي غاليا للغاية. كنت أتولى حياكة أثوابي بنفسي، وكنت أحتفظ بالقبعة ثلاث سنوات.

– هل كان يعطي روجيه كل ما كان يطلبه؟

– لقد أفسده! فقد هجرنا روجيه ليعيش وحده.. ومازال يأتيني من آن لآخر.. ولكنه كان يذهب أيضا لزيارة والده!

– هل تسكنان ميدان الفوج منذ فترة طويلة؟

– منذ ثماني سنوات تقريبا. عندما عثرنا على الشقة، لم نكن حتى نعلم أن كوشيه يعمل في الأمصال.. وقد أراد مارتان أن ننتقل إلى مسكن آخر.. ماكان لينقصنا غير ذلك! لو كان هناك من يجب أن يرحل لكان كوشيه أليس كذلك؟.. كوشيه، وقد أصبح ثريا بطريقة لا أعرفها، والذي كنت أراه يصل في سيارة يقودها سائق!.. فقد كان لديه سائق.. ورأيت زوجته.

– في بيتها؟

– لقد ترقبتها على طول الشارع، لأتأمل شكلها.. إنني أفضل ألا أقول

Add to Basket

شيئا، لم تكن شيئا عظيما، على كل حال، على الرغم من المظاهر التى كانت تبديها، وعلى الرغم من معطفها الفاخر.

فمر ميجريه بيده فوق جبينه، لقد راح الأمر يتحول إلى فكرة مسيطرة. فقد مضى ربع ساعة وهو يثبت نظره في الوجه نفسه، ولاح له الآن أنه قد لايستطيع محوه من غشاء عينيه. وجه رقيق، زال عند لونه، ذو ملامح دقيقة، كثيرة الحركة، ويبدو أنه لم يعبر في حياته إلا عن ألم مستسلم.

ذكره هذا أيضا ببعض شخصيات العائلات، بل بشخصيات من عائلته هو. فقد كانت له عمة، أضخم من مدام مارتان، لكنها كانت هي الأخرى دائمة الشكوى. فعندما كانت تزورهم، وهو حينئذ طفل، كان يدرك أنها ما أن تجلس حتى تخرج منديلا من حقيبتها.

واستطردت مدام مارتان:

– أرمانس، أيتها الشقية! أية حياة! ينبغي أن أقص عليك مافعله بيير فوق ذلك.

كانت لاتزال محتفظة بذلك القناع المتحرك، وتلك الشفتين الدقيقتين، وتلك العينين اللتين كان يعبرهما في بعض الأحيان شيء أشبه بضوء شارد.

وفقدت مدام مارتان خيط أفكارها فجأة، فقد كانت مضطربة.

– والآن، يجب أن تدرك موقفي.. طبعا، تزوج كوشيه مرة أخرى، ولم يحل دون ذلك أنني كنت زوجته، وأنني قاسمته مطلع حياته، أي أقسى سنوات عمره، وليست الأخرى أكثر من دمية..

– هل لك مطالب بخصوص الميراث؟

– أنا!

Add to Basket

صرخت حانقة :

– إنني لا أرغب في ماله على الإطلاق! نحن لسنا أغنياء! ومارتان يعوزه الإقدام ولايعرف كيف يتقدم، ولايتورع عن تقطيع العشب تحت أقدام زملاء له أدنى منه ذكاء.. ولكنني أفضل أن أخدم في المنازل عن أن أرغب.

– هل أرسلت زوجك ليخبر روجيه؟

لم تشحب، لأن ذلك كان أمرا مستحيلا، بل ظل لونها رماديا على درجة واحدة. غير أن تموجا ماطرأ على نظرتها.

– كيف عرفت؟

وأضافت فجأة وهي حانقة:

– آمل ألا يكون هناك من يراقبنا، على الأقل؟ إذن لطفح الكيل!.. وفي هذه الحال لن أتردد في أن ألجأ إلى السلطات العليا.

– هدئي من روعك، ياسيدتي.. أنا لم أقل مثل هذا الكلام.. إن المصادفة هي التي جعلتني أقابل السيد مارتان صباح اليوم..

ولكنها ظلت متشككة، ترمق مفتش المباحث بلا رقة.

– لسوف أندم على أنني حضرت!.. أردت أن أتبع الطريق الصحيح وبدلا من أن تشكرني..

– أؤكد لك أنني أشكر لك هذه الزيارة شكرا جزيلا.

ولم يغير هذا من شعورها، فهذا الرجل الضخم عريض المنكبين، الذي يرمقها بعينين سانجتين خاليتين من الأفكار، كان يفزعها.

– على كل – نطقت بها بصوت حاد – من الأفضل أن يكون المتكلم أنا، لا الحارسة – عندئذ، كنت ستعلم.

– إنك أول زوجة للسيد كوشيه.

– هل رأيت الأخرى؟

Add to Basket

وبذل ميجريه شيئا من الجهد حتى لايبتسم.

– ليس بعد..

– أوه! لسوف تذرف دموع التماسيح.. ولايمنع هذا أنها الآن هادئة البال.. فبالملايين التي جمعها كوشيه.

وها هي تبكي فجأة، وترتفع شفتها السفلى، الأمر الذي غير وجهها، ونزع عنه ما كان يشده.

– إنها لم تعرفه عندما كان يكافح، عندما كان في حاجة إلى امرأة تساعده، وتشجعه.. ومن وقت لآخر، كانت تنطلق زفرة مكتومة، لاتكاد تسمع، تخرج من العنق النحيل الذي يشد عليه شريط من الحرير المموج.

ونهضت، وراحت تتطلع حولها لكي تتأكد أنها لم تنس شيئا.

– ولكن هذا كله ليس له حساب.

وندت عنها ابتسامة مريرة، تحت الدموع.

– على كل، لقد أديت واجبي.. لست أدري ماذا تظن بي، ولكن..

– أؤكد لك أن..

كان سيحتار في مواصلة حديثه لو لم تكمل هي بنفسها:

– يستوي هذا بالنسبة لي! إن عندي ضميري الذي يحركني! لا أحد يستطيع أن يذكره كما..

كان ينقصها شيء ما.. لم تكن تعرف ماذا يكون. وألقت نظرة أخرى دائرية، وحركت إحدى يديها، وكأنها تعجب إذ وجدتها فارغة.

وكان ميجريه واقفا، فأوصلها إلى الباب.

– أشكر لك مسعاك..

– لقد قمت بما اعتقدت أن من واجبي القيام به.

Add to Basket

وبلغت الدهليز، حيث كان بعض المفتشين يثرثرون وهم يضحكون، فمرت بالقرب منهم في أنفة، دون أن تدير رأسها، وبعد أن أغلق الباب، سار ميجريه ناحية النافذة التي فتحها على سعتها، على الرغم من البرد، كان مرهقا، وكأنه انتهى من تحقيق عسير مع أحد المجرمين، لقد انتابه، بوجه خاص، ذلك الانحراف المزاجي الغامض الذي يشعر به المرء عندما تضطره الظروف إلى أن يطلع على بعض مظاهر الحياة يفضل عادة أن يكون جاهلا بها.

لم يكن أمرا محزنا، لم يكن أمرا منغصا. لم تقل شيئا غريبا، لم تكشف لمفتش المباحث عن أي أفق جديد. ولم يمنع هذا أن تفضي تلك المقابلة إلى شبه إحساس بالتقزز، وعلى ركن من أركان المكتب، كانت نشرة الشرطة مفتوحة، تعرض صورا لنحو عشرين شخصا مطلوبا البحث عنهم، لأغلبهم وجوه وحشية ورؤوس بها ندبات غيرت معالمها.

أرنست ستروبتز محكوم عليه غيابيا أمام محكمة «كان»، لأنه قتل مزارعة على طريق «بينوفيل».

وتأشيرة بالأحمر: خطير . مسلح دائما. شخص يبيع حياته غاليا.

ايه حسن ! إن ميجريه كان يفضل ذلك على هذه الصورة الرمادية المائعة وعلى هذه القصص العائلية، وعلى هذه الجريمة التي لم تتضح بعد ولو أنه كان يتكهن أنها ستبلبل الأفكار.

كانت هناك صور تلاحقه: آل مارتان، كما كان يتصورهما يوم الأحد في الشانزليزيه. والمعطف المطاط والشريط الحريري الأسود حول رقبة الزوجة...

Add to Basket

رن ميجريه الجرس. فظهر «جان» فأرسله ميجريه ليحضر البيانات التى كان قد طلبها عن كل من يتصلون بالمأساة .

لم يكن في الأمر ما يثير. لقد قبض على «نين» مرة، مرة واحدة، في «مونمارتر» على أثر مداهمة قام بها رجال الشرطة، وقد أفرج عنها بعد أن أثبتت أنها لا تعيش من الدعارة.

أما عن كوشيه الابن، فقد ذكرته فرقة مكافحة القمار وتحدثت عنه جريدة «الموندين» التي كانت تشك في أنه متورط في تهريب المخدرات، ولكن لم يثبت ضده شئ واضح.

وباتصال هاتفي بشرطة الآداب، علم أن «سيلين» التي تلقب بلوازو، وولدت في سان – أمون – موترون، كانت معروفة في هذه المدينة. وكانت لديها بطاقتها، وتأتى للزيارة بانتظام، وقال رئيس الفرقة:

– إنها ليست بالفتاة الشريرة! إنها تكتفي في أغلب الأحيان بصديق أو صديقين دائمين .. ولا نقابلها إلا عندما تعود إلى الشارع..

ولم يكن جان، خادم المكتب، قد غادر الحجرة، فراح يوجه نظر ميجريه إلى شئ ما قائلا:

– لقد نسيت تلك السيدة مظلتها!

– أنا عارف ..

– آه!

– أجل، أنا فى حاجة إليها.

ونهض مفتش المباحث وهو يتنهد، وراح يغلق النافذة، واستقر في كرسيه موليا ظهره ناحية اللهب، فى الوضع الذى اعتاده عندما يكون فى حاجة إلى التفكير.

***

Add to Basket

وبعد ذلك بساعة، كان في استطاعته أن يلخص ذهنيا جميع المذكرات التي وصلته من الأقسام المختلفة والتي كانت تنتشر فوق مكتبه.

أولا، تقرير الطبيب الشرعي الذي قام بعملية التشريح، والذي يقول بأن العيار الناري أطلق من بعد ثلاثة أمتار تقريباً وان الميتة كانت صاعقة. وأن معدة القتيل كان بها كمية ضئيلة من الكحول، ولكنها لا تحتوي على مواد غذائية.

أما مصورو تحقيق الشخصية، الذين كانوا يقومون بأعمالهم في أعلى دار المحكمة، فقد صرحوا بأنهم لم يكشفوا عن أية بصمة تثير الانتباه.

وأخيرا أكد بنك ليون أن كوشيه، وهو معروف لديه، قد مر بالمركز الرئيسي في الثالثة والنصف تقريباً وأخذ أوراقا مالية جديدة قيمتها ثلاثمائة ألف فرنك كما هي عادته في الليلة الأخيرة من كل شهر.

إذن فقد أصبح من المقرر تقريبا أن كوشيه، لدى وصوله قد وضع الثلاثمائة ألف فرنك في الخزانة، إلى جانب الستة آلاف التي كانت توجد بها قبلا. ولما كانت لا تزال لديه بعض الأعمال، فإنه لم يعد إغلاق الخزانة التي أسند ظهره إليها.

وكان الضوء في المعمل يشير إلى أنه غادر المكتب في وقت معين، إما لكي يتفقد الأماكن الأخرى، وإما، وهذا أكثر الأمرين احتمالا، لكي يذهب إلى الأحواض. فهل كانت الأموال لاتزال في الخزانة، عندما عاد الى مكتبه؟

إن العقل يقول بالنفي، لأنه في هذه الحال، كان لابد للقاتل من أن ينحي الجثة جانبا، ليشد الباب الثقيل ويستولي على الأوراق المالية.

كان هذا هو الجانب الفني في الموضوع. قاتل – لص، أم قاتل ولص، تصرفا منفردين ؟

Add to Basket

أمضى ميجريه عشر دقائق عند قاضي التحقيق ليبلغه بالنتائج التى توصل إليها. ولما كان النهار قد انتصف قبل قليل، عاد إلى بيته، وقد استدارت كتفاه، مما يدل على انحراف مزاجي.

سألته زوجته وكانت قد قرأت الجريدة :

– هل أنت الذى تقوم ببحث قضية ميدان الفوج؟

– أنا !

وبطريقة خاصة، جلس ميجريه، وراح يتطلع الى زوجته بحنان بالغ يشوبه القلق في الوقت نفسه.

كانت مدام مارتان لاتزال ماثلة أمام عينيه، بوجهها الرقيق، وثيابها السوداء، وعينيها الأليمتين. وتلك الدموع التى كانت تتفجر على حين فجأة، وراحت تختفي، وكأنها قد اتقدت بلهب داخلي، لتعاود الظهور بعد ذلك..

ومدام كوشيه التى تملك الفراءات .. ومدام مارتان التى لا تملك منها شيئا.. وكوشيه الذى يمون المشتركين فى سباق فرنسا للدراجات، وزوجته الأولى التى كان عليها أن تحتفظ بالقبعة نفسها ثلاثة أعوام. والإبن .. وقنينة الاتير، فوق منضدة السرير فى فندق بيجال ... وسيلين التى لا تنزل الشارع إلا عندما لا يكون لديها صديق منتظم لفترة من الزمن .. ونين ...

– يظهر عليك عدم الارتياح .. وتبدو معتلا .. وكأنك مصاب بالزكام.

حقا! فقد كان «ميجريه» يشعر بوخزات فى منخريه، وربما يشبه الفراغ فى رأسه.

– ما هذه المظلة التى أتيت بها؟ إنها بشعة! ..

– مظلة مدام مارتان ! السيد مارتان وزوجته، بالمعطف والثوب الحريرى الأسود، وهما يتريضان يوم الأحد فى الشانزليزيه! ..

***

Add to Basket

إنها مشاعر لا يمكن تأويلها:

كان المرء يشعر بأن هناك شيئا غير عادي يجرى في المنزل، شيئا يبين عن نفسه من ظاهره.

ما هذه الجلبة التي تجرى في حانوت أكاليل الموتى المرصعة باللؤلؤ؟ ما من شك في أن السكان يساهمون معا من أجل تقديم إكليل.

وما هذه النظرات القلقة التي يوجهها حلاق السيدات، الذى يطل حانوته على الناحية الأخرى من القبو؟

على كل، لقد كان المنزل في ذلك اليوم بادي الكآبة. ولما كانت الساعة قد بلغت الرابعة، وكان الليل قد شرع يهبط، فقد كان المصباح الضئيل الذى يبعث على السخرية قد أشعل تحت القبو.

وفي المواجهة، كان حارس حديقة الميدان يوصد أبوابها. وراح خادم آل سان مارك، فى الطابق الأول، يسدل الستائر في هدوء وعناية.

وعندما طرق ميجريه باب المسكن، وجد مدام بورسييه، الحارسة، منهمكة في قص الأحداث على محصل من دوفايل يعلق فوق كسوته الزرقاء سلسة تنتهي بصليب :

– منزل لم يحدث به شئ على الإطلاق .. صه! .. إنه مفتش المباحث ...

كانت تبدو عليها أواصر قرابة غامضة تربطها بمدام مارتان، بمعنى أنهما كانتا لا تندرجان تحت سن معينة كما أنهما لا تتبعان أيا من الجنسين. وأنهما كانتا بائستين، أو كانتا في عداد البائسات.

كل ما هناك أن الحارسة كانت تتسم، إلى جانب الاذعان، بإذعان شبه بهيمي لمصيرها.

Add to Basket

- «جوجو» .. «ليلي» .. لا تمكثا في الطريق .. صباح الخير ياسيدى المفتش .. كنت فى انتظارك هذا الصباح .. يالها من قصة! .. رأيت فى أثناء مرورى بجميع السكان أن أقوم بعمل كشف من أجل الإسهام فى شراء إكليل .. هل عرف متي تقام الجنازة؟ ... وبالمناسبة، مدام سان مارك .. كما تعلم! .. أرجوك ألا تخبرها بشئ .. لقد حضر السيد سان مارك صباح اليوم .. إنه يشفق عليها من الانفعالات، فى حالتها هذه..

وفى الفناء الذى كان يكتنفه جو من الزرقة، كان المصباحان، مصباح القبو والمصباح المثبت فى الحائط، يرسمان خطوطا طويلة صفراء. وسأل ميجريه قائلا:

- شقة مدام مارتان؟

- بالطابق الثاني، الباب الثالث، إلى اليسار بعد المنعطف...

وتعرف مفتش المباحث النافذة التى كان ينبعث منها الضوء، ولكن لم يكن يرتسم على الستار أى خيال.

ومن ناحية المعامل، كانت تبلغ الآذان قعقعة الآلات الكاتبة ووصل أحد الموزعين.

- أمصال الدكتور ريفيير ؟

- فى أقصى الفناء ! الباب الأيمن! دع أختك فى حالها ياجوجو!

وراح ميجريه يرتقي السلم، وقد حمل تحت أبطه مظلة مدام مارتان. وحتى الطابق الأول، كان البيت مجددا، فقدا أعيد طلاء الجدران، ودهنت درجات السلم.

وابتداء من الطابق الثانى، كان هناك عالم آخر، حوائط قذرة، وأرضية مبشورة. وكان يكسو الأبواب طلاء رمادى ردىء فوق هذة الأبواب كان المرء

Add to Basket

يرى تارة بطاقات زيارة مشبوكة، وتارة لوحات بارزة من الألومنيوم . وثمة بطاقة زيارة المائة منها بثلاثة فرنكات تقول:

– السيد إدجار مارتان وحرمه. وإلى اليمين شريط مضفور. ثلاثي اللون، ينتهي «بشوشة» ملساء. وعندما جذبها ميجريه، رن في فراغ المسكن جرس صغير، ثم سمعت خطوات عجلى وانطلق صوت يسأل:

– من بالباب؟

– أنا، أحمل إليك مظلتك!

وفتح الباب، كان المدخل لا يعدو مترا مربعاً، على أحد جدرانه مشجب يتدلى منه المعطف المطاط، وفي المواجهة، باب مفتوح لحجرة تستعمل للاستقبال والطعام في الوقت نفسه، بها آلة لاسلكي فوق صندوق.

– آسف لإزعاجك . لقد نسيت صباح اليوم هذه المظلة في مكتبي ....

– عجيب ! وأنا التي اعتقدت أني نسيتها في «الحافلة». كنت أقول لمارتان ..

لم يبتسم ميجريه، كان قد ألف هذا الصنف من النساء اللاتي يدعون أزواجهن بألقابهم .

كان مارتان موجودا، يرتدي سروالا مخططا يلبس فوقه سترة منزلية من الجوخ البني السميك.

– تفضل، أرجوك..

– لا أحب أن أزعجكما.

– ليس هناك ما يزعج من ليس لديهم شئ يخفونه.

قد تكون الرائحة هي السمة الأساسية التي تميز بين المساكن. كانت رائحة هذا المسكن غير نفاذة، يطغى عليها شمع الأرضية، والمطبخ، والثياب القديمة.

Add to Basket

وفي أحد الأقفاص يقفز طائر «كناريا» ويقذف أحيانا بقطرة ماء الى الخارج.

– احضر الكرسي لسيادة المفتش ..

الكرسي ! لم يكن هناك سوى كرسي واحد، كرسي طراز فولتير يكسوه جلد من القتامة بحيث يبدو أسود..

وكانت مدام مارتان مختلفة عما كانت عليه في الصباح، وراحت تغمغم قائلة:

– فلنتناول شيئا ما .. أجل.. مارتان! احضر قليلا من الشراب..

وكان مارتان ضيقا حرجا. أمن الممكن أن يكون المنزل خاليا من الشراب؟ أمن الممكن ألا يكون به غير ثمالة في زجاجة؟

– شكرا يا سيدتي! أنا لا أشرب أبدا قبل الأكل.

– ولكن لديك وقتا كافيا..

كان شيئا محزنا! محزنا لدرجة تقنط معها أن تكون إنسانا، أن تعيش على أرض تتلألأ الشمس عليها ساعات عديدة كل يوم، وبها طيور حقيقية مطلقة السراح !

لابد وأن هؤلاء الناس لا يحبون النور، ذلك لأن المصابيح الكهربائية الثلاثة كان يحجبها بعناية قماش ملون كثيف لا ينفذ منه إلا قدر ضئيل من الأشعة.

وطرق ميجريه خاطر. فقال في نفسه:

– وبخاصة شمع الأرضية!

لأن هذا هو ما كان يطغى على الرائحة!

Add to Basket

ومن جهة أخرى، كانت المنضدة المصنوعة من الفرو الغليظ مصقولة كأرض أعدت للتزحلق.

وتصنع ميجريه ابتسامة رجل يستقبل زائرا.

– إنكما تتمتعان بمنظر بديع، اذ يطل مسكنكما على ميدان الفوج، ذلك الميدان الذى لا مثيل له في باريس!

كان ميجريه وهو يقول ذلك يعرف تماما أن النوافذ تطل على الفناء.

– كلا ! إن أسقف شقق الواجهة في الطابق الثانى، شديدة الانخفاض بسبب طراز الأثاث..... وأنت تعلم أن الميدان بأكمله يقع كأثر تاريخى..... ليس لنا الحق في أن نمسه.. إن هذا أمر يرثى له! .. ها قد مرت سنوات ونحن نريد أن نقيم حماما و.....

كان ميجريه قد اقترب من النافذة، وبحركة غير مكترثة، راح يزيح ستار خيالات الظل، ثم ظل ثابتا، متأثرا حتى أنه نسى أنه يتحدث كزائر مهذب.

وفي قبالته كانت توجد مكاتب كوشيه ومعمله.

من أسفل، كان قد لاحظ أن هناك نوافذ من الزجاج المعتم.

ومن هنا، لاحظ أنها لم تكن إلا النوافذ السفلى، أما الأخرى فكانت رائقة صافية تقوم الخادمات بتنظيفها مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع.

وفي المكان نفسه الذى قتل فيه كوشيه كان السيد فيليب يظهر جليا للعيان وهو يوقع على خطابات كتبت على الآلة الكاتبة، تقدمها له أمينة سره، واحدا واحدا، وكان الناظر يستطيع أن يميز مغلاق الخزينة. أما باب الاتصال بين المكتب والمعمل فكان منفرجا.

ومن خلال نوافذ المعمل كانت تبدو نسوة في قمصان بيضاء مصطفات على طول منضدة كبيرة وقد انهمكن في رص الأنابيب الزجاجية.

Add to Basket

كان لكل منهن عمل، فكانت الأولى تتناول من إحدى السلال الأنابيب المكشوفة وتقوم الثانية بتسليمها لأحد الموظفين، وقد أصبحت لفافات كاملة التغليف. وقصارى القول، كانت تسلمها بضاعة معدة لتسلم للصيدليات.

ـ ومع ذلك يجب أن تشرب شيئا!.

هكذا جاء صوت مدام مارتان من خلف ميجريه. وتحرك زوجها، وفتح خزانة في الحائط، واصطكت الأكواب.

ـ لا أكثر من جرعة من «الفرموت» ياسيدي المفتش!. ربما قدمت لك مدام كوشيه «كوكتيل»..

وندت عن مدام مارتان ابتسامة حادة، كما لو كانت شفتاها من الدهن.

Add to Basket

(٥)
المجنونة

يقال ميجريه والكأس في يده، وقد راح يتطلع إلى مدام مارتان:

ـ آه! لو كنت نظرت من النافذة، مساء أمس! لكان تحقيقي انتهى...، منذ بدايته!، لأنه من المستحيل ألا يرى المرء من هنا كل مايجرى فى مكتب كوشيه.

عبثا كان المرء يحاول أن يجد أى مقصد فى نبرة صوته، أو فى هيئته، كان يرشف من كأس «الفرموت» فى يده وهو يثرثر.

ـ بل ولقلت إن هذه الحادثة تمثل حالة من أغرب حالات الشهادة من الوجهة الجنائية، إذ شاهد شخص من بعيد حادثة القتل! ماذا أقول؟ إن المرء مستعينا بنظارة مقربة، يستطيع أن يرى شفاه المتحادثين واضحة إلى الحد الذى يستطيع معه أن يستعيد المحادثة التى دارت بينهما.

لم تدر مدام مارتان ماذا تظن، فاتخذت موقفا متحفظا، وارتسمت على شفتيها الشاحبتين ابتسامة جامدة.

ـ ومع ذلك فيالهول ذلك الانفعال الذى كنت ستتعرضين له! أن تكونى فى نافذتك، هادئة ساكنة، وعلى حين فجأة، ترين شخصا يهدد زوجك

Add to Basket

القديم! إن الأمر أسوأ من ذلك! لأن المشهد كان لابد وأن يكون أكثر تعقيدا، إنني أتخيل كوشيه بمفرده تماما، غارقا في حساباته.. ثم ينهض ويتوجه ناحية الأحواض، وعند عودته كان شخص ما قد فتش في الخزانة ولم يكن لديه وقت للفرار.. ومع ذلك فهناك أمر غريب، في هذه الحالة: وهو أن كوشيه جلس ثانية.. صحيح أنه ربما كان يعرف سارقه.. وتحدث إليه.. ووجه إليه اللوم، وطلب إليه أن يعيد المال.

فقالت مدام مرتان:

ـ ولكن، كان يجب أن أكون في النافذة!.

ـ ربما استطاع آخرون إلقاء النظرة نفسها من بعض النوافذ الأخرى في الطابق نفسه؟.. من يقطن إلى يمينكم؟.

ـ فتاتان وأمهما.. أولئك اللائي يدرن الحاكي كل مساء.

وفي تلك اللحظة دوت صرخة سبق أن سمعها ميجريه فظل صامتا لحظة، ثم دمدم قائلا:

ـ المجنونة، أليس كذلك؟.

ـ صه!..

أصدرتها مدام مارتان، وهي تتوجه بخطى خرساء ناحية الباب، وفتحته فجأة فلمحا، على ضوء الممر الرديء شبح امرأة يبتعد مسرعا.

ـ العجوز البغيضة!.

دمدمت بها مدام مارتان بصوت مرتفع تستطيع أن تسمعه الأخرى، وإذ عادت أعقابها، وهي تتميز من الغيظ، راحت تشرح الأمر للمفتش:

ـ إنها ماتيلد العجوز! طاهية قديمة! هل رأيتها؟ إن المرء ليظنها ضفدعا

Add to Basket

ضخما! إنها تسكن الحجرة المجاورة، مع أختها المجنونة، وهما على درجة واحدة من الهرم والقبح!، ولم تغادر المجنونة حجرتها مرة واحدة منذ أن نزلنا في هذه الشقة.

ـ ولماذا تصرخ بهذه الطريقة؟.

ـ إن هذه النوبة تتملكها عندما يتركونها وحيدة في الظلام، إنها تخاف مثل الأطفال، إنها تعوى.. ولقد انتهى بي الأمر إلى إدراك حيلهما.. فمن الصباح إلى المساء، تظل ماتيلد العجوز تحوم في الممرات.. ونحن دائما على ثقة من أننا سنجدها قابعة خلف أحد الأبواب، وعندما نفاجئها في هذا الوضع، لاتكاد تضيق لذلك .. فتبتعد هادئة، رابطة الجأش.. لدرجة أن المرء لايشعر أنه في داره وأن عليه أن يخفض صوته، إذا أراد أن يناقش شئون الأسرة.. ولقد فاجأتها لتوى متلبسة، أليس كذلك؟ إيه حسنا! إننى أراهن أنها عادت.

ووافقها ميجريه قائلا:

ـ وضع غير لطيف، ولكن المالك، ألا يتدخل؟.

ـ لقد فعل كل شيء لطردهما.. ولكن للأسف هناك القوانين التي تحول دون ذلك.. دون مراعاة أنه مما ينافي الصحة، ومما تمجه النفوس أن تعيش هاتان العجوزتان في حجرة صغيرة! إننى أراهن أنهما لاتستحمان على الإطلاق.

وتناول مفتش المباحث قبعته.

ـ أرجو أن تغفرا لي أنني أزعجتكما، لقد حان وقت الانصراف.

ومنذ تلك اللحظة، تكونت لدى ميجريه صورة واضحة عن المسكن، ابتداء من أغطية الأثاث، حتى التقاويم التي تزين الجدران.

Add to Basket

ـ لاتحدث ضوضاء.. ستفاجيء العجوز.

ولم يتحقق ذلك تماما، فلم تكن في الممر، ولكنها كانت خلف بابها المنفرجُ كعنكبوت ضخم يتربص، ولابد أنها ارتبكت عندما لمحت المفتش يوجه إليها تحية رقيقة عند عبوره.

★★★

في وقت تناوله المشهيات، كان ميجريه جالسا في «السيليكت» ليس بعيدا عن البار الأمريكي حيث لا حديث إلا عن السباق وعندما اقترب منه النادل، عرض عليه صورة روجيه كوشيه، التي كان قد أخذها في الصباح من فندق شارع بيجال.

ـ هل تعرف هذا الشاب؟.

فدهش النادل وقال:

ـ غريب..

ـ ما الغريب؟.

ـ لقد انصرف قبل أقل من ربع ساعة.. كان جالسا إلى هذه المائدة!، ولم يكن ليجذب انتباهي، لو لم يكن قد قال لي، بدلا من أن يحدد لي نوع المشروب الذي كان يريده:

ـ المشروب نفسه الذي قدمته لي بالأمس!.

غير أنني لم أكن أذكر أنني رأيته على الإطلاق.. فقلت له:

ـ هل تسمح فتذكرني به؟.

ـ واحد جان ـ فيز.

ولقد عجبت لذلك كثيرا!، لأنني واثق من أنني لم أقدم هذا المشروب مساء أمس.

ولبث بضع دقائق، ثم انصرف... ومن الغريب أنك رحت تعرض على صورته قبل قليل.

لم يكن ثمة غرابة على الإطلاق، لقد أراد روجيه أن يقيم الدليل على أنه كان في«السيليكت» عشية الأمس، كما صرح بذلك لميجريه، وقد لجأ في سبيل ذلك إلى حيلة ماهرة ولم يخطيء إلا حين اختار مشروبا قليل الشيوع، ومرت دقائق ثم دخلت ذين عابسة النظرة، وجلست إلى أقرب مائدة من البار، وما أن لمحت المفتش، حتى نهضت، وترددت، ثم تقدمت نحوه وسألته قائلة:

ـ هل تريد أن تتحدث إليّ؟.

ـ ليس هذا بالضبط، ولكن، مع ذلك! أحب أن أوجه إليك سؤالا. أنت تحضرين إلى هنا كل مساء، أليس كذلك؟.

ـ كان ريمون يحدد هذا المكان دائما للقائنا!.

ـ هل تعتادين الجلوس في مكان محدد؟

ـ هناك، حيث جلست عند دخولي.

ـ وهل كنت تجلسين هناك بالأمس؟.

ـ أجل، لماذا؟.

ـ ألا تذكرين أنك رأيت صاحب هذه الصورة؟.

وتأملت صورة روجيه، ثم دمدمت قائلة:

ـ إنه جاري في الفندق.

Add to Basket

Add to Basket

ـ أجل، ابن كوشيه.

فراحت عيناها تحملقان، وقد اضطربت لهذا التوافق، وساءلت نفسها عما يخبئه من أمور.

ـ لقد زارني، صباح اليوم، بعد انصرافك بقليل.. كنت عائدة من «المولان بلو».

ـ ماذا كان يريد؟.

ـ لقد سألني قرصا من الأسبرين من أجل «سيلين» التي كانت مريضة.

ـ وفي المسرح؟ هل أقاموك بعمل؟.

ـ على أن أكون هناك هذا المساء.. لقد أصيبت إحدى الراقصات.. وإذا لم تتحسن حالها فسأحل محلها، وربما تعاقدوا معي نهائيا.

ثم خفضت صوتها لكي تكمل الحديث:

ـ المائة فرنك معي.. هات يدك.

ـ وكانت هذه الحركة بمثابة كشاف أبان ملامح لنفسه بأسرها.

كانت لاتريد أن تناول ميجريه المائة فرانك علانية!كانت تخشى أن تسبب له حرجا! فكانت تقبض على الورقة في راحة يدها وقد طوتها دقيقا! ثم ناولته إياها كما لو كانت تناولها لمعشوق.

ـ أشكرك فقد كنت طيبا معي.

كان المرء يشعر بفتورها، كانت تتطلع حولها دون أن تعير انتباها لمن يروحون ويجيئون، ومع ذلك فقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة شاحبة، ونوهت قائلة:

ـ إن مدير الفندق ينظر إلينا.. إنه يسائل نفسه عن سبب وجودي معك..

Add to Basket

ويبدو أنه يظن أنني عثرت على بديل «لريمون».. ستعرض نفسك للشبهة!.

ـ هل ترغبين في تناول شيء؟.

فأجابت في السر:

ـ متشكرة! لو احتجت إلى مصادفة.. أنا في «المولان بلو» اسمي «اليان».. وأنت تعرف مدخل الفنانين، شارع «فونتين»؟.

★★★

لم يكن في الأمر مشقة كبيرة، فقد ضغط ميجريه على جرس باب شقة شارع هوسمان، قبل موعد العشاء بدقائق، كانت رائحة زهر الأقحوان الكئيبة تسود الجو ابتداء من المدخل، فراحت الخادمة تفتح الباب، وهي تسير على أطراف أصابعها.

لقد ظنت أن المفتش يريد ببساطة أن يقدم بطاقته، فقادته دون أن تقول كلمة إلى حجرة الميت، التي يجللها السواد، وعند المدخل، وجد عديدا من بطاقات الزيارة فوق طبق كبير من طراز لويس السادس عشر.

كان الجسد قد أودع الصندوق، الذي كان يختفي تحت الأزهار.

وفي أحد الأركان كان الناظر يرى رجلا وجيها يلبس الحداد، راح يومىء إلى ميجريه برأسه إيماءة خفيفة.

وفي مواجهته، كانت هناك امرأة في نحو الخمسين من عمرها، ذات ملامح غليظة، تهندمت في ثياب ريفية، وتحثو على ركبتيها، واقترب المفتش من الرجل:

ـ هل أستطيع أن أرى مدام كوشيه؟.

ـ سأسأل أختي إذا كان في استطاعتها مقابلتك.. سيادتك؟.

Add to Basket

ـ ميجريه! مفتش المباحث المكلف بالتحقيق.

ولبثت الفلاحة مكانها ، ومرت عدة لحظات، عاد الرجل على أثرها وقاد ضيفه خلال الشقة.

وبخلاف رائحة الزهور التي كانت تسود المكان كله، كانت الحجرات محتفظة بطابعها المعتاد، كانت شقة جميلة من طراز أواخر القرن الماضي، شأن غالبية شقق شارع هوسمان، حجرات واسعة، والأسقف والأبواب أفرط في تزيينها بعض الشيء، وأثاث طراز كلاسيكي، وفي حجرة الاستقبال، علقت ثريا أثرية من البلور، ما أن يسير المرء حتى تدق.

كانت مدام كوشيه موجودة، يحيطها ثلاثة أشخاص قامت بتقديمهم، أولا، الرجل الذي يرتدي الحداد قدمته قائلة:

ـ أخي، هنري دو رومي، محامي في المحكمة...

ثم رجل متقدم في السن:

ـ عقيد دوروموي، عمي....

وأخيرا، امرأة فضية الشعر:

ـ ماما...

كانوا جميعا ، وقد ارتدوا الحداد، غاية في الوجاهة، ولم يكن الشاي قد رفع من فوق المائدة، وكانت هناك بقايا «توست» وحلوى.

ـ تفضل بالجلوس..

ـ سؤال، لو سمحت هذه السيدة التي في حجرة الميت..؟

فقالت مدام كوشيه:

ـ إنها أخت زوجي.. وصلت صباح اليوم من «سانت آمون».

Add to Basket

لم يبتسم ميجريه، ولكنه أدرك السبب، كان يشعر تماما أنهم لايحبون لأحد أن يشهد عائلة كوشيه لدى وصولها، فى ثياب ريفية أو برجوازية.

وكان هناك أقارب الزوج «آل كوشيه» و«أقارب الزوجة» «آل دورموى» فآل دورموى يتسمون بالأناقة، والرزانة وجميعهم يرتدون فعلا ملابس الحداد، أما آل كوشيه، فلم يصل منهم إلا هذه المرأة التى تضغط صديريتها الحريرية على ماتحت إبطيها بشدة.

ـ هل أستطيع أن أقول لك كلمتين على انفراد، ياسيدتى؟ فاستأذنت من أفراد عائلتها، الذين كانوا يريدون مغادرة المكان.

ـ ابقوا.. أرجوكم.. سنذهب إلى الركن الأصفر..

لقد بكت، لاشك فى ذلك، ثم ذرت وجهها بالمساحيق، وكان فى استطاعة الناظر إليها أن يدرك بصعوبة أن جفنيها مثخنان قليلا، وكان صوتها غائبا بفعل إعياء حقيقى.

ـ ألم تتلق اليوم زيارة غير منتظرة؟.

فرفعت رأسها، على مضض:

ـ كيف عرفت؟.. أجل.. عند حلول العصر، جاءنى ابن زوجى.

ـ كنت تعرفينه قبلا؟.

ـ معرفة طفيفة.. كان يزور زوجى فى مكتبه.. وفوق ذلك فقد صادفناه مرة فى المسرح، وقام ريمون بتقديم كل منا للآخر.

ـ وفيم كانت زيارته؟.

كانت ضائقة، فأشاحت بوجهها:

ـ كان يريد أن يعرف ما إذا كنا عثرنا على وصية.. وقد طلب إلى أيضا

Add to Basket

أن أدله على رجل أعمالى، حتى يتحدث إليه بشأن الإجراءات. وتنهدت، وحاولت أن تجد عذرا لهذه الخساسة.

ـ هذا من حقه! أعتقد أن نصف الثروة يئول إليه، وأنا لا أنوى أن أهضمه هذا الحق.

ـ هل تسمحين لى بتوجيه بعض الأسئلة الفضولية؟.. عندما تزوجت كوشيه، هل كان غنيا؟.

ـ أجل.. أقل من اليوم، ولكن أعماله كانت قد بدأت تروج..

ـ زواج حب؟.

فندت عنها ابتسامة غامضة.

ـ لقد تقابلنا فى «دينار».. وبعد ثلاثة أسابيع، سألنى إذا كنت أوافق على أن أصبح زوجة له.. واستعلم أهلى عنه.

ـ وهل كنت سعيدة؟.

ونظر فى عينيها، وأصبح فى غنى عن إجابتها، وآثر أن يدمدم قائلا:

ـ كان ثمة فارق فى السن.. كان كوشيه مشغولا بأعماله باختصار، لم يكن بينكما حب كبير.. أصحيح هذا؟.. كنت تديرين منزله.. وكانت لك حياتك، وكانت له حياته.

ـ إننى لم أوجه له اللوم على الإطلاق! لقد كان رجلا يتمتع بحيوية عظيمة، وفى حاجة إلى حياة كثيرة الحركة.. ولم أكن لأحب أن أقف فى طريقه.

ـ ألم تشعرى بالغيرة؟.

ـ فى البداية.. ثم تعودت على ذلك.. وأعتقد أنه كان يحبنى كثيرا.

Add to Basket

كانت على قدر غير قليل من الجمال، ولكن دون تألق أو احتداد، ملامح دقيقة إلى حد ما، وجسد بض.. وأناقة معتدلة، لابد وأنها كانت رائعة عندما قامت بتقديم الشاى إلى صديقاتها، فى حجرة الاستقبال الفاترة المريحة.

ـ هل كان زوجك يحدثك كثيرا عن زوجته الأولى؟.

عندئذ جمدت حدقتاها، وحاولت أن تخفى غضبها، ولكنها أدركت أن الأمر لا ينطلى على ميجريه، فراحت تقول:

ـ ليس علىّ أنا أن...

ـ آسف، فنظرا لظروف الجريمة، لايمكن أن يكون هناك مجال للتلطف فى الحديث.

ـ ألا ترتاب فى أحد؟.

ـ أنا لا أرتاب فى أحد.. إننى أحاول أن أكوّن صورة عن حياة زوجك، والمحيطين به، والأعمال والحركات التى قام بها فى ليلته الأخيرة، هل كنت تعلمين أن تلك السيدة تسكن العمارة نفسها التى توجد بها مكاتب كوشيه؟.

ـ أجل! لقد أخبرنى بذلك.

ـ وكيف كان يتحدث عنها؟.

ـ كان يحقد عليها.. ثم خجل لهذا الإحساس، وكان يزعم أنها فى الواقع تعتبر شقية؟.

ـ ولماذا شقية؟.

ـ لأنه لم يكن هناك مايشبعها.. ثم....

ـ ثم؟.

ـ إنك تدرك ما أريد أن أقوله.. إنها نفعية إلى حد كبير.. وباختصار، لقد

Add to Basket

هجرت «ريمون» لأنه لم يكن يكسب مالا كافيا.. وبعد ذلك، تجده غنيا.. وتكون هي زوجة موظف بسيط.

ـ ألم تحاول أن...

ـ كلا! لا أعتقد أنها طلبت منه مالا على الإطلاق، صحيح أن زوجي ما كان ليطلعني على ذلك، كل ما أعرفه أن مقابلته لها في ميدان الفوج كانت تسبب له ألما، وأعتقد أنها كانت تتخذ التدابير لكي تكون في طريقه، لم تتحدث إليه، ولكنها كانت تنظر إليه بازدراء.

لم يستطع المفتش أن يكتم ابتسامة، وهو يتصور اللقاءات التي كانت تتم تحت القبو: كوشيه ينزل من العربة، نضيرا، ومدام مارتان، متعاظمة، بقفازها الأسود ومعطفها وحقيبة يدها ووجهها السام.

ـ أهذا كل مالديك من معلومات؟.

ـ ولو استطاع لغير مكان عمله، ولكن من الصعب أن يعثر المرء في باريس على معامل...

ـ بالطبع، ألا تعرفين أعداء لزوجك؟.

ـ أبدا! كان يتمتع بحب الجميع! كان طيبا للغاية، طيبا لدرجة تثير السخرية.. لم يكن ينفق مايجمع من أموال: كان يبعثرها.. وعندما كنا نلومه على ذلك، كان يجيب بأنه ظل سنوات يجمع المليم فوق المليم، ليبدو في النهاية مبذرا..

ـ وهل كان يزور عائلتك كثيرا؟.

ـ نادرا! فليست العقلية واحدة، أليس كذلك؟... ولا الأذواق متفقة.

وبالفعل.. وجد ميجريه صعوبة في تصوره لكوشيه في حجرة الاستقبال

Add to Basket

مع المحامي، والعقيد والأم التى تتم حركاتها عن كبرياء. كل هذا من اليسير إدراكه.

شاب دموى، قوى، سوقى، يخرج من لاشىء، يقضى ثلاثين عاما من حياته سعيا وراء الثروة، ولا يقتات إلا من لحوم الأبقار المصابة بالكلب... ويصبح غنيا، وفى «دينار» يتوصل إلى مجتمع لم يقبله على الإطلاق، فتاة بمعنى الكلمة، عائلة برجوازية .. شاي، و«بيتى فور» وتنس، وصحاب.

تزوج! لكى يبرهن لنفسه أن كل شىء أصبح جائزا له منذ الآن! لكى تكون له حياة داخلية كأولئك الذين لم يطلع عليهم إلا من الخارج!.

تزوج أيضا لأنه تأثر بهذه الفتاة العاقلة المؤدبة.

فكانت شقة شارع هوسمان، بما فيها من أشياء تقليدية.

كل ما هناك، أنه كان فى حاجة إلى الانطلاق خارج البيت، ورؤية أناس آخرين، والتحدث إليهم دون تحفظ.. وإلى الحانات، والبارات...

ثم كان فى حاجة إلى نساء أخريات.

كان يحب زوجته طبعا! وكان معجبا بها! وكان يحترمها! وكانت هى تؤثر فيه.

ولكن من أجل هذا السبب الأخير كان فى حاجة إلى نساء ساءت تربيتهن، على شاكلة «نين» لينطلق معهن على سجيته.

وتراقص سؤال على شفتى مدام كوشيه، كانت تتردد فى توجيهه، ومع ذلك، فقد عقدت عزمها وهى تتطلع إلى مكان آخر.

ـ أريد أن أسألك إذ.. الأمر حساس.. اعذرنى..

Add to Basket

كانت له صديقات ، أنا أعرف ذلك.فهو لم يكن يكتم ذلك .. ولا يكاد! إلا عن حرص.

إنني أريد أن أعرف إذا كان سينتج عن ذلك مضايقات، وفضائح..

كانت بلا شك، تتصور عشيقات زوجها كأولئك العاهرات اللائى تتحدث عنهن الروايات، أو كنجوم السينما!.

ـ لاتخشى شيئا!.

ابتسم لها ميجريه وهو يستعيد صورة نين الصغيرة، بوجهها القروى، وحفنة المجوهرات التى أودعتها بنك التسليف، عصر اليوم نفسه.

ـ ألن يكون من الضرورى أن؟......

ـ كلا لن يكون هناك أى تعويض!.

وعجبت لذلك كثيرا، وربما اغتمت لذلك قليلا، لأنه إذا كانت هؤلاء النساء لا تطالبن بشىء، فذلك لأنهن يحتفظن لزوجها بنوع من الود! وكذلك هو بالنسبة لهن.

ـ هل حددتم موعد الجنازة؟.

ـ لقد تكفل أخى بهذا الأمر.. وستقام يوم الخميس، فى سان ـ فيليب ـ دى ـ رول..

وبلغت الأسماع أصوات تأتى من حجرة الطعام المجاورة، أو كان هذا بالطبع إيذانا بأن تهيأ لطعام العشاء؟..

ـ لم يبق أمامى إلا أن أقدم لك الشكر،وأن أستأذنك فى الانصراف، مكررا أسفى.

Add to Basket

وبينما كان يهبط شارع هوسمان سائرا على قدميه، فوجئ بنفسه يدمدم قائلا وهو يحشو غليونه:

ـ كوشيه أيها الرجل العظيم!

وجد نفسه يقول ذلك كما لو كان كوشيه هذا صديقا قديما له. كان منفعلا لدرجة الذهول لكونه لم يعرف إلا ميتا.

كان يبدو له أن يعرفه معرفة تامة من جميع النواحي.

أمن الممكن أن يكون ذلك بسبب النساء الثلاث ؟

الأولى ، ابنة الحلواني، التي تقطن في «نانتير» ، والتي تأرق لأن زوجها قد يظل أبدا بلا مهنة محترمة .

ثم فتاة «دينار» وما حظي به كوشيه من أشباع ضئيل لكبريائه ، إذ أصبح نسيبا لعقيد .

و«نين» .. ولقاءات «السيليكيت».. وفندق بيجال ... والابن الذي كان يأتيه طالبا المال! ومدام مارتان التي كانت تتخذ التدابير لتقابله تحت القبو ، وربما أملا منها في مضايقته عن طريق تأنيب الضمير ...

أعجب بها من نهاية ! وحيد تماما في المكتب الذي يأتيه لماما! متكئ إلى الخزانة المفتوحة ، ويداه فوق المنضدة ..

ولم يلمح أحد شيئا .. والحارسة ، وهي تمر بالفناء ، كانت تراه في المكان نفسه خلف الزجاج الكثيف ..

ولكن الذي يقلقها بنوع خاص ، هي مدام سان – مارك التي كانت تلد .. والمجنونة التي راحت تصرخ بشدة! وبمعنى آخر ، ماتيلد العجوز التي

Add to Basket

راحت تتربص خلف أحد أبواب الممر وهى تنتعل اللباد .

والسيد مارتان ، فى معطفه المطاط، ينزل وينقب عن قفازه قرب صناديق القمامة .. ثم ثمة شئ أكيد : وهو أن شخصا يملك الآن الثلاثمائة والستين ألف فرنك المسروقة! وأن شخصا قام بالقتل !

– الرجال جميعهم أنانيون!.. قالتها مدام مارتان بمرارة ووجه يقطـــر ألما .

أهى التى معها الثلاثمائة والستون ألف فرنك التى قام بتسليمها بنك تسليف ليون؟ أهى التى تملك المال ، المال الكثير ، حزمة كاملة من الأوراق المالية الكبيرة تمثل سنوات من الراحة بغير اهتمام بالغد ولا بالمعاش الذى يؤول لها بموت مارتان ؟

أهو روجيه ، بجسده الأملس ، الذى استنفذه الأثير وسيلين التى التقطها من الطريق ؟

أهى نين ، أم مدام كوشيه ؟

وعلى كل، هناك مكان، كـان من الممكن أن نرى منه شئ : مـسكن آل مارتان .

وهناك امرأة تحوم فى البيت ، تلصق أذنها بكل الأبواب ، وتجر نعليها فى الممرات .

وحدث ميجريه نفسه قائلا :

– يجب أن أقوم بزيارة ماتليد العجوز !

ولكنه عندما بلغ ميدان الفوج، صباح اليوم التالى ، راحت الحارسة التى

Add to Basket

كانت تفرز البريد «كومة كبيرة لعمل الأمصال ، ويضع خطابات فقط لبقية السكان » توقفه !

– هل أنت صاعد إلى آل مرتان ؟.. لست أدرى إذا كنت تحسن الصنع فقد كانت مدام مارتان الليلة تقاسي من مرض فظيع .. واضطررنا للجوء إلى الطبيب .. إن زوجها كالمجنون ..

كان الموظفون يعبرون الفناء ، في طريقهم لاستلام أعمالهم فى المعامل والمكاتب ، وكان الخادم ينفض البساط فى نافذة بالطابق الأول .

وثمة صراخ طفل وليد وأغنية شعبية ترددها مرضعة فى رتابة .

Add to Basket

(٦)
حرارة أربعون درجة

صه!.. لقد نامت .. ومع ذلك . أدخل ..

وغاب السيد مارتان ، مذعنا . مذعنا أن يدع مسكنه الذى تسوده الفوضى على مرأى من الغريب ، راضيا أن يبدو هو نفسه بدون هندمة أو تزين وقد تدلى شارباه ، الضاربان إلى الاخضرار ، مما يدل على أنه تعود تخضيبهما .

لقد ظل طوال الليل ساهرا . كان منهكا ، لا يصدر عنه رد فعل على الإطلاق . وعلى أطراف أصابعه ، راح يوصد الباب الذى يوصل إلى حجرة النوم ، ويرى الناظر منه قائم السرير وطستا موضوعا على الأرض .

- هل أخبرتك الحارسة .

كان يهمس ، ونظراته القلقة مصوبة ناحية الباب . وفى الوقت نفسه ، راح يطفئ موقد الغاز الذى كان يسخن فوقه كمية من القهوة .

- فنجان صغير ؟

- شكرا .. لن أزعجكم كثيرا .. أثرت المجئ للسؤال عن مدام مارتان .

- أنت لطيف للغاية !

Add to Basket

قالها مارتان باقتناع .

كان في الحقيقة لا يرى في ذلك سوء قصد على الإطلاق .. لقد كان من الاضطراب بمكان حتى أنه فقد كل حاسة للنقد . وفضلا عن ذلك ، فهل كان يتمتع بهذه الحاسة قبلا ؟

– ما أفظعها ، تلك الأزمات!. هل تسمح لي بتناول قهوتي في حضرتك؟..

واضطراب لما وجد أن حمالات سرواله تصطك بسمانتي ساقيه، فأسرع يصلح من زينته ، ورفع عن النضد زجاجات أدوية كانت تتحرك .

– هل تنتاب هذه الأزمات مدام مارتان كثيرا ؟

– كلا .. وبخاصة هذا النوع العنيف!.. إنها عصبية إلى حد بعيد ..

يبدو أنها عندما كانت فتاة كانت تنتابها أزمات عصبية كل أسبوع ..

– والآن أيضا ؟

فرمقه مارتان بنظرة كلب مضروب، وتجرأ فصرح قائلا :

– أنا مضطر لمهاودتها .. فما أن تواجهها معارضة بسيطة ، حتى تقع فريسة لهيجان شديد !

كانت هيئته بنوع خاص مدعاة للسخرية ، بمعطفه المطاط . وشاربيه اللامعين ، وقفازه الجلد . كان صورة كاريكاتورية لموظف صغير مغرور .

أما الآن فقد زال لون شعره ، وبدت عيناه عليلتين . لم يكن لديه وقت لكي يغتسل . وكان لا يزال مرتديا قميص النوم ، تحت سترة قديمة .

كان يبدو رجلا رضي الخلق . وكان الناظر يذهل إذ يدرك أنه يبلغ من العمر خمسين عاما على الأقل .

Add to Basket

– هل تعرضت لما ضايقها ، مساء أمس ؟

– كلا .. كلا ..

كان مذعورا ، ينظر حواليه في فزع .

– ألم تستقبل أحدا ؟.. ابنها ، مثلا ؟..

– كلا! .. وصلت أنت ثم تناولنا عشاءنا .. ثم .

– ماذا ؟

– لا شئ .. لست أدرى .. لقد حدث هذا من تلقاء نفسه .. فهى حساسة إلى حد بعيد .. لقد تعرضت في حياتها لكثير من المصائب! ..

هل كان يعتقد فعلا فيما يقول ؟ كان ميجريه يشعر أن مارتان يتحدث لكى يقنع نفسه .

– باختصار أليس لك ، شخصيا ، رأى فى هذه الجريمة ؟

فترك مارتان الفنجان الذى كان بيده يسقط على الأرض . ترى أكانت أعصابه مريضة ، هو الآخر ؟

– ولماذا يكون لى رأى؟.. أقسم لك .. لو كان لى رأى ، لـ...

– أنت ؟

– لست أدرى .. شئ فظيع! .. وبالذات في وقت تكثر فيه أعمالنا فى المكتب .. لم يكن لدى وقت حتى لكى أخبر رئيسى ، هذا الصباح ..

ومر بيده النحيلة فوق جبينه ، ثم شرع يلتقط قطع الخزف . وبحث طويلا عن خرقة ليجفف الأرضية .

– لو استمعت لى ، لما بقينا فى هذا البيت ..

كان خائفا ، كان هذا واضحا . كان منهارا من الخوف . ولكن ما مبعث

Add to Basket

هذا الخوف ، ومن ياترى مصدره ؟

– أنت رجل شهم ، أليس كذلك ياسيد مارتان؟ والرجل الشهم ..

– لقد خدمت اثنين وثلاثين عاما و..

– إذن ، لو كنت تعرف شيئا يمكن أن يساعد العدالة ، فى الكشف عن الجاني ، فمن واجبك أن تخبرني به ..

ألن تصطك أسنانه ؟

– كنت أقول بالتأكيد .. ولكنني لا أعرف شيئا .. وأنا نفسي أريد أن أعرف .. فليست هذه حياة ..

– ما رأيك في ابن زوجتك ؟

فاستقرت من مارتان على ميجريه نظرة تعجب .

– روجيه ؟.. إنه ..

– شخص منحرف ، أجل !

– ولكنه ليس شريرا ، أقسم لك .. إنها غلطة أبيه .. كما تردد زوجتي ذلك دائما ، فلا يجب أن نعطي الفتيان مثل هذه الأموال الكثيرة .. وهي محقة في ذلك! وأنا أعتقد مثلها أن كوشيه لم يكن يفعل ذلك عن طيبة قلب ، ولا عن حب لابنه الذى لم يكن يكترث به .. كان يفعل ذلك ليتخلص منه ، ليكون على وفاق مع ضميره .

– ضميره ؟

فاحمر وجه مارتان ، وازداد ارتباكه .

– لقد أخطأ نحو « جولييت » ، أليس كذلك ؟

قالها مارتان بصوت أكثر خفوتا .

Add to Basket

– جولييت !

– زوجتى .. زوجته الأولى .. ماذا أفعل من أجلها ؟. لا شئ .. لقد عاملها معاملة الخادمات . ومع ذلك فهى التى أعانته فى الأوقات العصيبة .. وبعد ذلك ..

– لم يعطها شيئا ، طبعا !

ولكنها كانت قد تزوجت من جديد ..

فاصطبغ وجه مارتان بلون أرجوانى .كان ميجريه يتطلع إليه متعجبا مشفقا لأنه كان يدرك أن هذا الرجل الطيب لا دخل له فى هذه القضية المذهلة . إن كل ما يفعله هو ترديد لما يمكن أن يكون قد سمعه من زوجته مائة مرة .

كان كوشيه غنيا! وكانت هى فقرة! . إذن ..

ولكن المفتش راح يصغى السمع .

– ألم تسمع شيئا ؟

ولزما الصمت برهة . فأدرك نداء غير واضح يأتى من الحجرة المجاورة . فراح مارتان يفتح الباب ، فسمع مدام مارتان تسأل قائلة:

– ماذا تقص عليه ؟

– .. إننى ..

– إنه المفتش ، أليس كذلك؟.. ماذا يريد ثانية ؟.

لم يكن ميجريه يراها . وكان الصوت صوت إنسان راقد ، بلغ منه الإرهاق مبلغا بعيدا ، ولكنه مع ذلك يحتفظ برباطة جأشه .

– لقد أتى المفتش ليسأل عنك ..

Add to Basket

– دعه يدخل .. انتظر ! ناولني منشفة مبللة والمرآة . والماشطة .

– ستتضايقين ثانية ..

– امسك المرآة معتدلة!.. كلا ! دعها أفضل .. أنك لست بقادر على أن ... أرفع هذا الطمس!.. آه! الرجال .. ما أن تغيب الزوجة حتى يصبح البيت مثل الحظيرة.. دعه يدخل الآن .

كانت الحجرة مثل حجرة الطعام ، عابسة كئيبة ، قليلة الأثاث ، مع إفراط في الستائر القديمة ، والأقمشة البالية ، والسجاجيد الرخيصة التي زالت عنها ألوانها . ومن عند الباب شعر ميجريه بنظرة مدام مارتان مصوبة نحوه، هادئة، حصيفة بطريقة عجيبة .

وعلى صفحة الوجه المشدود ، شهد ابتسامة مريضة متملقة . قالت :

–لا تلق بالا .. كل شئ في فوضى .. وذلك بسبب تلك الأزمة .. ونظرت أمامها في اكتئاب .

– ولكنني في حال أفضل .. فيجب أن أشفى غدا ، من أجل الجنازة .. هل ستقام غدا فعلا ؟

– أجل . ستكون غدا . أنت تتعرضين لهذه الأزمات ..

– كانت تنتابني وأنا طفلة .. ولكن أختي ..

– هل لك أخت ؟

– لي أختان .. لا تعتقد فيما ليس له وجود .. كانت الصغرى تتعرض هي الأخرى للأزمات .. وتزوجت .. وكان زوجها إنسانا حقيرا . وذات يوم انتهز إحدى هذه الأزمات وطالب بتحويلها إلى مستشفى الأمراض العقلية .. فماتت، بعد أسبوع ، .

Add to Basket

– لا تنفعلى !.

قالها متوسلا إليها وهو لا يدرى أين يجلس ولا أين ينظر .

فسأل ميجريه قائلا :

– مجنونة ؟.

فقست ملامح المرأة ، وغدا صوتها رديئا .

– أى أن زوجها أراد أن يتخلص منها!.. وبعد مضى أقل من ستة أشهر تزوج من أخرى.. والرجال جميعا هم الرجال . ونحن نخلص لهم ، ونقتل أنفسنا من أجلهم .

فتنهد الزوج قائلا :

– أتوسل إليك ! .

– أنا لا أقول ذلك من أجلك! مع أنك لست أفضل من الآخرين ..

وشعر ميجريه على حين بغتة بما يشبه تيارات من الحقد . كان ذلك عابرا .

كان ذلك غامضا. ومع ذلك فقد كان على ثقة من أنه لم يخطئ فى ظنه .

ثم أردفت تقول :

– وهذا لا يمنع أننى لو لم أكن موجودة ..

أليس فى صوتها تهديد ؟ كان الرجل يتحرك فى الفراغ . ولكى يحافظ على اتزانه ، راح بعد جرعة من الدواء يسكبها نقطة نقطة فى كوب .

– لقد قال الطبيب !

– إننى أسخر من الطبيب !

– ومع ذلك فيجب .. خذى! اشربى ببطء .. أنه ليس رديئا ، فنظرت إليه،

Add to Basket

ثم نظرت إلي ميجريه ، وأخيرا شربت ، وهي تهز كتفيها مستسلمة .

– ألم تأت حقا إلا لتسأل عني؟

قالتها بحذر .

– كنت في طريقي إلي المعامل ، عندما أخبرتني الحارسة ..

– هل اكتشفت شيئا ؟

فأغلقت عينيها ، لتظهر تعبها . وتطلع مارتان إلي ميجريه وهو ينهض :

– وأخيرا أتمني لك شفاء عاجلا .. إنك فعلا في حال أحسن .. وتركته ينصرف . ومنع ميجريه مارتان من توصيله للباب .

– أبق إلي جوارها ، أرجوك .

يا للشخص المسكين ! لعله كان خائفا من البقاء إلي جوارها ، ولعله كان يتعلق بالمفتش ، لأنه عندما يكون هناك ثالث فإن الأمر يكون أخف وطأة .

– ستري أن الأمر بسيط يسير ..

وبينما كان يعبر حجرة الطعام ، سمع صوت شخص يهرب في الممر . ثم لحق بماتليد العجوز ، في اللحظة التي كانت تعود فيها إلي حجرتها .

– صباح الخير ، ياسيدتي ..

فتطلعت إليه في خوف ، دون أن تجيب ، ويدها علي «مقبض الباب» .

كان ميجريه يتحدث بصوت خافت ، إذ كانت عينه علي أذن مدام مارتان التي تصغي السمع ، فقد كان من الممكن أن تنهض بدورها فتتصت عند الأبواب .

– أنا ، كما تعلمين ، مفتش المباحث المكلف بالتحقيق ..

كان يدري مقدما أنه لن يخرج بشيء من هذه المرأة . ذات الوجه الهادئ

Add to Basket

إلى الحد الذى أصبح معه قمريا .

– ماذا تريد منى ؟.

– أريد فقط أن أسألك إذا كان لديك ماتريدين قوله لى .. هل تسكنين هذا المنزل منذ زمن بعيد ؟..

– منذ أربعين عاما !

قالتها بجفاف .

– أنت تعرفين جميع السكان ..

– أنا لا أتحدث إلى أحد !

– أعتقد أنك ربما تكونين قد رأيت شيئا أو سمعت شيئا .. ففى بعض الأحيان، يستطيع دليل بسيط أن يجعل العدالة تسير فى الطريق السليم ..

كانت ثمة حركة ، داخل الحجرة . غير أن العجوز كانت تتشبث بالباب الموصد فى عناد .

– ألم ترى شيئا ؟

لم تجب .

– ولم تسمعى شيئا ؟

– إنك تحسن صنعا ، إذا قلت للمالك أن يركب لى جهاز الغاز ..

– الغاز ؟

كل من فى المنزل لديهم الغاز .. أما أنا فلأنه ليس من حقه أن يرفع أجر مسكنى، فهو يمنعه عنى.. إنه يريد أن يطردنى!.. إنه يفعل كل شئ لكى أذهب .. ولكنه سيذهب قبلى ، إلى القبر!.. وتستطيع أن تنقل له ذلك عنى ..

وفتحت الباب قليلا ، بقدر يبدو معه مستحيلا على المرأة الضخمة أن تمر

Add to Basket

من خلاله . ثم أغلقت دونها ، ولم يعد يبلغ الآذان إلا ضوضاء مكتومة فى الحجرة .

★★★

– بطاقتك لو سمحت ؟

وتناول الخادم ، الذى كان يرتدى صديرية مخططة ، البطاقة التى قدمها له ميجريه ، وغاب فى الشقة التي كانت تفيض نورا ، بفضل النوافذ التى كانت ترتفع إلى خمسة أمتار ، الشئ الذى قلما نصادفه فى غير عمارات ميدان الفوج وجزيرة «سان – لوى» .

كانت الحجرات فسيحة . ومن مكان ما فى الشقة كان يأتى صوت مكنسة كهربائية . وثمة مرضعة فى «بلوزة» بيضاء ، وغطاء رأس أزرق ، تنتقل من حجرة إلى حجرة ، وهى ترمق الزائر بنظرة فضول ..

وجاء صوت قريب يقول :

– أدخل المفتش ..

كان السيد سان – مارك بمكتبه ، فى عباءة البيت ، بشعره الفضى الذى عنى بتصفيفه . وراح أولا ليغلق بابا سنحت الفرصة لميجريه أن يلمح من خلاله سريرا من طراز كلاسيكى ، ووجه امرأة على وسادة .

– تفضل . اجلس .. طبعا ، أنت تريد أن تتحدث معى فى ذلك الموضوع المهول ، موضوع كوشيه ..

وعلى الرغم من سنه ، فقد كان يوحى بالقوة ، والصحة . أما الشقة فكان يسودها جو بيت سعيد ، كل ما فيه مضئ وبهيج .

– لقد تأثرت لهذه المأساة ، لا سيما وقعت فى وقت عصيب بالنسبة لى

Add to Basket

– أنا أعرف ..

وسطع فى عينى السفير القديم قبس من كبرياء ، لقد كان فخورا أن يكون له ولد فى هذه السن .

– أرجو أن نتحدث بصوت منخفض ، لأننى أفضل ألا تعلم مدام سان – مارك بهذه القصة .. ففى مثل حالها ، قد نندم لو علمت بالخبر .. ولكن فى الواقع ، فيم تريد أن تسألنى؟ أننى لا أكاد أعرف كوشيه هذا .. لقد لمحته مرتين أو ثلاث مرات وأنا أعبر الفناء .. إنه ينتمى إلى أوساط أتردد عليها من آن لآخر ، «الهوسمان» .. ولكن ما كان له أن يرتادها .. كل ما هناك أننى لمحت إسمه فى الدليل الذى ظهر حديثا .. وأنا أعتقد أنه على شئ من السوقية ، أليس كذلك ؟

– يعنى أنه خرج من طبقة الشعب .. ولاقى بعض الصعوبات ليصبح ما أصبح عليه ..

– لقد أخبرتنى زوجتى بأنه تزوج فتاة من عائلة كريمة ، كانت صديقة قديمة لها فى القسم الداخلى .. وهذا أحد الأسباب التى يستحسن من أجلها ألا نطلعها على الأمر .. ماذا ترغب إذن ؟

ومن خلال النوافذ الكبيرة ، كان الناظر يشرف على ميدان الفوج بأشعة شمسه الخفيفة البهيجة . وفى حديقة الميدان ، كان البستانيون يقومون برى الأرض الخضراء وأدغال الأزهار . وثمة عربات نقل تجرها خيول فى خطى ثقيلة .

– مجرد استعلام .. إننى أعلم أنك ، وقد ضقت بانتظار الأحداث وهذا أمر طبيعى ، خرجت مراراً تجوب الفناء .. فهل حدث أن صادفت شخصا ؟ ألم تر شخصا يتجه ناحية المكاتب التى تقع فى أقصى الفناء ؟.

Add to Basket

فراح السيد مارتان يفكر وهو يعبث بقطع الورق .

– انتظر .. كلا! لا أعتقد .. يجب أن تعلم أن أمورا أخرى كانت تشغل فكرى .. إن الحارسة قد تستطيع ذلك أكثر منى .

– إن الحارسة لا تعرف شيئا ..

– وأنا .. كذلك !... أو بالأحرى.. ولكن لا يمكن أن يكون لهذا أية علاقة بالموضوع .

– قل مع ذلك .

– فى لحظة ما ، سمعت ضوضاء تأتى من ناحية صناديق القمامة .. كنت بلا عمل .. فاقتربت فرأيت ساكنة من الطابق الثانى ...

– مدام مارتان ؟

– أعتقد أن هذا هو اسمها ... أننى أعترف بأن معرفتى بجيرانى ليست كما يجب ... كانت تنقب فى سطل من الزنك ... وأذكر أنها قالت لى :

– ملعقة فضية سقطت عفوا فى القاذورات ....

فسألت :

– وهل عثرت عليها ؟

فقالت بشئ من الاحتداد :

– أجل!.. أجل ...

فسأل ميجريه :

– وماذا فعلت عندئذ ؟

– صعدت إلى مسكنها ، بخطى حثيثة ... إنها إنسانة نحيلة الجسم عصبية ، تبدو دائما كأنها تجرى ... وإذا لم تخنى ذاكرتى ، فلقد حدث أن

Add to Basket

فقدنا خاتما قيما بهذه الطريقة ... وأجمل شئ ، أن أحد جامعي الخرق أعاده للحارسة ، إذ كان قد عثر عليه وهو يعالج خطافه ...

– هل تستطيع أن تقول لي في أية ساعة وقعت هذه الحادثة ؟

– قد يكون ذلك صعبا بالنسبة لي ... انتظر ... لم أكن أرغب في العشاء ... ومع ذلك ، ففي حوالي الثامنة والنصف ، راح ألبير ، خادمنا ، يتوسل إلى أن أتناول شيئا ... ولما رفضت الجلوس إلى المائدة ، أحضر لي في حجرة الاستقبال فطائر صغيرة بالأنشوجة .. كان ذلك قبل ...

– قبل الثامنة والنصف ؟

– أجل ... لنفترض أن الحادث ، كما تقول ، وقع بعد الثامنة بقليل ... ولكنني لا أعتقد أن لذلك أية أهمية . ما رأيك في هذا الموضوع ؟... أما من جهتي فأنا أرفض تصديق ما بدأت تروجه الشائعات ، من أن الجريمة ارتكبها شخص من المنزل ... تصور أن أي كائن يمكن أن يدخل الفناء .... ومن جهة أخرى فسأوجه للمالك طلبا حتى يوصد الباب منذ الغروب ...

كان ميجريه قد نهض ، فقال :

– لم أكوّن بعد رأيي!.

وأقبلت الحارسة تحمل البريد ، ولما كان باب الردهة لا يزال مفتوحا ، فقد لمحت المفتش على حين فجأة وهو يختلي بالسيد سان – مارك .

قلبي يامدام بورسييه!. لقد قلبت رأسا على عقب!. وراحت نظرتهاتكشف عن عوالم من الاضطراب !.

ترى أيسمح ميجريه لنفسه في أن يرتاب في آل سان – مارك؟ أو في مجرد مضايقتهم بأسئلته؟

– أشكرك ياسيدي ... وأرجو أن تغفر لي هذه الزيارة ...

Add to Basket

– سيجار ؟

كان السيد سان –مارك سيدا على قدر كبير من العظمة ، تدل على رجل السياسة أكثر مما تدل على رجل الدبلوماسية .

– أنا تحت أمرك ..

وأغلق الخادم الباب . وهبط ميجريه السلم فى تؤده ، فوجد نفسه فى الفناء حيث يبحث موزع إحدى المحلات الكبرى عن الحارسة دون جدوى . لم يكن فى المسكن إلا كلب ، وقط والطفلان الصغيران يحاول كل منهما أن يلطخ الآخر بحساء مختلط باللبن .

– ماما ليست موجودة ؟

– ستعود الآن ياسيدى ! لقد صعدت بالبريد ....

وفي المكان الوضيع من الفناء ، بالقرب من المسكن ، كان ثمة أربعة صناديق من الزنك ، يأتيها السكان منذ الليل متتابعين فيلقون فيها بماذوراتهم . وفى السادسة صباحا ، تفتح الحارسة باب الدخول ، فيقوم رجال التنظيم بتفريغ الأوعية فى عربتهم .

وهذاالركن ، لا يكون مضيئا ، فى المساء ، فالمصباح الوحيد الذى ينير الفناء يوجد فى الناحية الأخرى ، أسفل السلم .

فعم جاءت تبحث مدام مارتان تقريبا فى اللحظة التى قتل فيها كوشيه ؟

هل كانت هى الأخرى مصممة على العثور على قفاز زوجها ؟

– كلا! دمدم بها ميجريه وقد تذكر فجأة أمرا . فمارتان لم ينزل القمامة إلا فى وقت متأخر جدا .

إذن فما معنى هذه الحكاية ؟ الموضوع لا يمكن أن يكون موضوع ملعقة

Add to Basket

ضائعة . ففى أثناء النهار لا يحق للسكان أن يضعوا أى شئ داخل الأوعية الفارغة!

إذن عم كانا يبحثان ، كلاهما ، الواحد بعد الآخر ؟

كانت مدام مارتان تنقب فى نفس الوعاء !

ومارتان كان يحوم حوله وهو يشعل أعوادا من الثقاب !

والقفاز ، عثر عليه فى اليوم التالى !

– هل رأيت الطفل ؟

أتى هذا الصوت من خلف ميجريه .

كان صوت الحارسة التى كانت تتحدث عن طفل آل سان – مارك ، وهى أكثر تأثرا مما لو كانت تتحدث عن ابنيها .

– أظن أنك لم تخبر السيدة بشئ ؟ فمن الواجب ألا تعلم ..

– أعرف ! أعرف !

– أما عن الإكليل ... أقصد إكليل السكان ... فإننى أتساءل إذا كان من الواجب أن نحمله اليوم إلى منزل الميت ، أم أن العرف يحتم ألا نقدمه إلا ساعة الجنازة... كان الموظفون لطفاء للغاية ، فقد جمعوا ثلاثمائة فرنك .

ثم قالت وهى تلتفت ناحية أحد الموزعين :

– ماذا هناك ؟

– سان – مارك !

– السلم الذى إلى اليمين . الطابق الأول المواجه... أضغط على الجرس برقة ، أرجوك .

ثم قالت لميجريه :

Add to Basket

– آه لو علمت مقدار ما تتلقاه من زهور! لدرجة أنهما لا يعرفان أين يضعانها .. لقد اضطرا إلى وضع الجزء الأكبر منها فى حجرات الخادم ... ألا تحب أن تدخل ؟... جوجو ، ألن تدع أختك فى حالها؟...

كان المفتش لايزال ينظر إلى الأوعية . محاولا أن يتوصل إلى معرفة ما عسى كان يبحث عنه مارتان وزوجه بداخلها .

– هل تنقلينها فى الصباح، فوق الطوار ، كما هو متبع ؟

– كلا ! فقد أصبح هذا الأمر مستحيلا منذ ترملت . أو أنه يلزمنى عندئذ شخص آخر ليساعدنى ، لأنها بالغة الثقل بالنسبة لى ... ورجال التنظيم ظرفاء وأنا أقدم لهم من آن لآخر قدحا من الجعة . إنهم يأتون حتى الفناء لكى يحملوا الصناديق .

– حتى لا يعبث فيها جامعوا الخرق !

– أتعرف ذلك ؟ إنهم أيضا يدخلون الفناء .... وفى بعض الأحيان يكونون أربعة أو خمسة ، فيوسخون المكان بطريقة فظيعة ...

– أشكرك .

وانصرف ميجريه ، حالما ، ناسيا أو متناسيا أن يقوم بزيارة المكاتب من جديد ، كما عقد العزم على ذلك فى الصباح .

وعندما بلغ طوار المصوغات ، كان فى انتظاره من يقول له :

– طلبك شخص بالهاتف ، عقيد .

ولكنه واصل تفكيره . وما إن فتح باب مكتب المفتشين ، حتى نادى قائلا:

– لوكا! ستذهب الآن فورا ... وستقوم باستجواب كل جامعى الخرق الذين تعودوا أن يترددوا على ضواحى ميدان الفوج ... وإذا لزم الأمر

Add to Basket

ستذهب إلى مصنع سان – دينى ، الذى تحرق فيه القمامة ....

– ولكن ....

– يجب أن تعرف إذا كان أحدهم قد لاحظ شيئا غريبا فى الأوعية الخاصة بالمنزل رقم ٦١ ميدان الفوج ، صباح أول أمس ....

كان قد تداعى فوق الكرسى ومرت بخاطره هذه الكلمة : عقيد ... أى عقيد ؟ أنه لا يعرف منهم أحدا ...

آه أجل! ومع ذلك فأحدهم يرد فى القصة ! عم مدام كوشيه ! فماذا يريد منه ؟

– ألو!... أليزيه ١٧–٦٢؟... أنا ، ميجريه مفتش مباحث من الشرطة القضائية نعم؟... العقيد دورومور هو الذى يريد أن يتحدث إلى!.. أنا على السماعة ، أيوه .... ألو .. أهذا أنت ياسيدى العقيد ؟... ماذا جرى ؟ وصية... أنا لا أسمع جيدا ... كلا. بالعكس أخفض صوتك!... ابتعد قليلا عن السماعة .... هذا أفضل .... ماذا إذن ؟.... عثرتم على وصية غريبة؟... وغير معقولة أيضا؟.... مفهوم ! ساكون عندكم بعد نصف ساعة ... كلا! لاداعى لركوب سيارة إجرة ...

وأشعل غليونه وهو يدفع الكرسى ، ووضع ساقا فوق الأخرى .

Add to Basket

(٧)
النسوة الثلاث

– العقيد ينتظرك في حجرة سيادته . تفضل معي ...

كان نعش الميت مقفولا . وثمة حركة في الحجرة المجاورة ، التي تبدو أنها حجرة مدام كوشيه ، وراحت الخادمة تدفع أحد الأبواب ، فلمح ميجريه العقيد واقفا بالقرب من المنضدة ، وقد وضع عليه يده خفيفا ، ومرفوع الهامة ، وقورا ثابتا كأنه يقف أمام نحات يصنع له تمثالا .

– تفضل بالجلوس !

غير أن ميجريه لم يجلس ، واكتفى بفك أزرار معطفه الثقيل ، ووضع قبعته فوق أحد الكراسي ، وشرع يحشو الغليون ... ثم قال وهو يتطلع حوله باهتمام:

– هل أنت الذي عثرت على الوصية المذكورة ؟

– أجل ، صباح اليوم . إن ابنة أخي لاتعلم شيئا بعد . ويجب أن أقول إن الأمر يدعو للاشمئزاز الشديد ...

حجرة غريبة على شاكلة كوشيه ، وأثاث على الطراز الكلاسيكي شأن بقية الحجرات . وبعض التحف القيمة ولكن ، إلى جوار ذلك ، كان الناظر يرى أشياء تنم عن ميول الرجل الغريبة .

وأمام النافذة كانت منضدة يبدو أنه كان يتخذ منها مكتبا ، وعليها بعض لفافات التبغ التركية ، ولكن إلى جوار ذلك أيضا نجد مجموعة كاملة من الغليونات

Add to Basket

الواحد منها بستة دراهم ، سودها كوشيه من فرط الاستعمال . ونجد كذلك عباءة بيت أرجوانية! كانت أكثر الموجودات إشراقا! ثم نجد عند قاعدة السرير أحذية مثقوبة النعال .

كان بالمنضدة درج .

– أظنك تلاحظ أنها مغلقة بالمفتاح ! ولست أدرى حتى إذا كان المفتاح موجودا . لقد حدث صباح اليوم أن احتاجت ابنة أخى إلى بعض المال لتسدد حساب أحد الموردين وأردت أن أجنبها عملية إمضاء صك . فبحثت فى هذه الحجرة . وهذا ماوجدته ...

مظروف يحمل اسم «الجراند أوتيل» . ورقة خطاب ضاربة إلى الزرقة تحمل العبارة نفسها .

ثم أسطر يبدو أنها خطت بلا تركيز ، وكأنها تسويده .

« هذه هى وصيتى .....» .

وبعد ذلك ، هذه الجملة التى لم تكن فى الحسبان :

« نظرا لأننى قد لا أهتم بالاستعلام عن قوانين الإرث ، فإننى أرجو السيد دامبير موثق عقودى ، أن يبذل جهده حتى تقسم ثروتى بالتساوى ما أمكن بين :

« أولا : زوجتى ، جرمين لورموى .

ثانيا : زوجتى الأولى وهى اليوم زوجة السيد مارتان ، وقاطنة بميدان الفوج رقم ٦١ .

ثالثا : نين مونار ، التى تنزل فى فندق بيجال ، شارع بيجال» .

★ ★ ★

– ما ظنك ؟

كان ميجريه مبتهجا . لقد غدا كوشيه فى نظره ، بعد هذه الوصية لطيفا للغاية . وأردف العقيد قائلا :

– طبعا هذه الوصية ساقطة ، فهى تحوى كثيرا من أسباب بطلانها . وبمجرد انتهاء الجنازة، سنطعن فيها . وإذا كنت وجدت أن من المهم ومن الضرورى أن

Add to Basket

أتحدث إليك الآن ، فذلك لأن ....

كان ميجريه لايزال يبتسم كما لو كان يشهد ملهاة . حتى ورقة « الجراند أوتيل» هذه! فكوشيه ، شأن كثيرين من رجال الأعمال ، الذين لا يملكون مكاتب في قلب المدينة ، كان يتخذ من الجراند أوتيل مكانا للقاءاته ، وفي انتظار أحد الأشخاص في القاعة الفسيحة أو في حجرة التدخين ، سحب أحد المساند وكتب تلك السطور .

ولم يغلق المظروف ! وألقى بالجميع داخل درجه ، مرجئا عملية تحرير هذه الوصية طبقا للقواعد إلى ما بعد .

ومضى على ذلك خمسة عشر يوما . وقال العقيد :

– لابد أنك فوجئت بهذاالأمر الغريب . فقد نسي كوشيه مجرد ذكر ابنه ! وهذا وحده يعتبر دلايلا كافيا على بطلان الدعوى و...

– هل تعرف روجيه ؟

– أنا؟... كلا ...

وكان ميجريه لا يزال يبتسم .

– كنت أقول الآن إنني إذا كنت قد رجوتك للمجئ ، فذلك لأن ...

– هل تعرف نين موبار ؟

فذعر المسكين كما لو أن أحد داس قدمه .

– لا داعي لأن أعرفها ! إن عنوانها فقط ، بشارع بيجال ، يعطيني فكرة عن .... ولكن ماذا كنت أقول ؟... آه! أجل! هل رأيت تاريخ الوصية ؟ إنه حديث . فقد مات كوشيه بعد كتابتها بأسبوعين ... لقد قتل!... افترض إذن أن احدى المرأتين المذكورتين كانت قد علمت بهذه الوصية ... إنني أعتقد أنهما ليستا من الثراء في شئ ....

– ولم تقول امرأتين ؟

– ماذا تقصد ؟

– ثلاث نساء! إن الوصية تذكر ثلاث نساء ! نساء كوشيه الثلاث لو أردت!

Add to Basket

وأعتقد العقيد أن ميجريه يمزح .

– إنني أتكلم جادا .... ولا تنس أن في البيت قتيلا ! وأن الأمر يتعلق بمستقبل أشخاص عديدين!....

شئ طبيعي! ولم يحل ذلك دون رغبة ميجريه في الضحك . ولم يكن يستطيع هو نفسه أن يستبين السبب .

– أشكرك لأنك أطلعتني ....

كان العقيد مغموما . فلم يكن يدرك معنى ذلك الموقف الذي اتخذه موظف خطير كميجريه .

– إنني أفترض أن ....

– إلى اللقاء ياسيدي العقيد ... وأرجوك أن تنقل تحياتي إلى مدام كوشيه ....

وفي الشارع ، لم يتسطع أن يكتم هذه الدمامة ....

– كوشيه أيها الرجل العظيم .

هكذا ، في جمود ، بغير ضحك ، وضع نساءه الثلاث في وصيته! بما في ذلك زوجته الأولى ، التي أصبحت مدام مارتان ، والتي كانت لا تفتأ تقف في طريقه تصوب نحوه نظرة ازدراء ، وكأنها تأنيب حي! بما في ذلك نين الصغيرة الرضية ، التي كانت تبذل وسعها لكي ترفه عنه !

وعلى النقيض من ذلك ، نسي أن له ولدا !

وظل ميجريه لحظة طويلة ، يسائل نفسه عن أول شخص يحمل له هذا الخبر أيحمله إلى مدام مارتان ، التي تكفي الثروة لتدفعها من السرير ؟ أم إلى نين ؟

– أنهما لم تحصلا بعد على الأموال ...

إنها قصة من شأنها أن تستمر سنات ! قد ترفع دعوى! على كل ، فإن مدام مارتان قد لا تستسلم .

ولم يحل ذلك دون نزاهة العقيد ! فقد كان في استطاعته أن يحرق الوصية دون أن يعلم بها أحد ...

وراح ميجريه يخترق الحي الأوروبي في مرح . والشمس الحمراء تلطف من

Add to Basket

برودة الجو الذي يسوده نوع من البهجة .

– كوشيه أيها الرجل العظيم !

ودخل مصعد فندق بيجال دون أن يسأل شيئا . وبعد لحظات كان يطرق باب «نين» . كانت ثمة ضوضاء بالداخل . وانفرج الباب بمقدار يسمح بمرور يد ظلت ممتدة في الفضاء .

كانت يد امرأة كستها التجاعيد . ولما لم يتحرك ميجريه ، نفد صبرها ، فبدا وجه عجوز انجليزية، ثم دار حديث غير مفهوم .

أو بالأحرى أدرك ميجريه أن الانجليزية تنتظر بريدها ، وهذا ما كانت تدل عليه حركتها . والأوضح من ذلك هو أن نين لم تعد تشغل حجرتها وقد لا تكون في الفندق كله .

فحدث ميجريه نفسه قائلا :

– الأجر هنا مرتفع جدا بالنسبة لها !

ثم توقف مترددا أمام الباب المجاور، فحمله أحد الخدم على اتخاذ قرار ، عندما راح يسأله في تشكك .

– عم تبحث ؟

– السيد روجيه كوشيه ....

– ألا يرد ؟

– لم أطرق الباب بعد .

وابتسم ميجريه مرة أخرى . كان جزلا . لقد شعر فجأة في ذلك الصباح أنه يشترك في أداء مشهد هزلي! الحياة كلها كانت مهزلة! ومقتل كوشيه كان مهزلة، وبخاصة وصيته !

– ادخل !

وتحرك المزلاج في الباب . فكان أول ما قام به ميجريه هو أن أزاح الستائر وفرج النافذة .

لم تكن سيلين قد استيقظت بعد . وكان روجيه يفرك عينيه ويتثاءب:

Add to Basket

– آه ! هذا أنت ...

كان ثمة تقدم . فلم تكن رائحة الأثير تغلب على جو الحجرة . ووضعت الملابس فى أكوام فوق الأرض .

– .... ماذا تريد ؟

وجلس فوق السرير ، وتناول كوب ماء كان فوق منضدة السرير وأفرغه دفعة واحدة .

– لقد عثر على الوصية !

أعلنها ميجريه وهو يغطى ساق سيلين العارية ، التى كانت ترقد متكورة.

– وبعد ؟

لم يظهر روجيه أى انفعال ، اللهم إلا فضولا غامضا .

– وبعد ؟ إنها وصية غريبة! لسوف يسيل لها مداد كثير . ولسوف يجنى رجال القانون من ورائها أموالا طائلة .

تصور أن والدك ترك كل ثروته لنسائه الثلاث .

وبذل الشاب مجهودا لكى يستطيع أن يفهم .

– نسائه ....؟

– أجل زوجته الشرعية الحالية . ثم والدتك . وأخيرا عشيقته «نين» ، التى كانت لا تزال جارتك حتى الأمس ! لقد كلف موثق عقوده أن يقوم باللازم لكى تحصل كل منهن على نصيب مساو للآخرين .

لم يحرك ذلك من روجيه ساكنا . كان يبدو عليه التفكير . ولكنه ليس تفكيرا فى أمر يخصه شخصيا .

– الأمر واضح .

قالها روجيه أخيرا ، بلهجة رزينة تتناقض مع الكلمات .

– هذا بالضبط ما قلته للعقيد .

– أى عقيد ؟

– قريب مدام كوشيه ... انه يقوم إلى جانبها بدور سيد العائلة ....

Add to Basket

وراح الشاب يخرج ساقيه من السرير ، ويتناول سروالا ملقى فوق مسند أحد الكراسي .

– لا يبدو أنك تأثرت لهذا الخَبر .

– أنا ، أنت تعلم ...

كان يزرر السروال ، وراح يبحث عن الماشطة ، ويوصد النافذة التي كانت تسمح بدخول هواء شديد البرودة .

– ألست في حاجة إلى المال ؟

كان ميجريه قد تحول فجأة إلى الجد . وغدت نظرته ثقيلة ، فاحصة .

– لست أدرى .

– ألا تدرى إذا كانت في حاجة إلى المال أم لا ؟

فوجه روجيه إلى المفتش نظرة غائمة ، فأحس ميجريه بضيق .

– أنا لا أهتز ....

– يبدو أنك تجنى من المال كثرا! .

– انني لا أجنى درهما واحدا !

وتثائب ، وتطلع إلى نفسه في المرأة عابسا . ولاحظ ميجريه أن سيلين كانت قد استيقظت . لم تكن تتحرك ويبدو أنها سمعت شطرا من المحادثة، لأنها كانت ترقب الرجلين بفضول .

ومع ذلك فقد كانت هي الأخرى في حاجة إلى كوب الماء . وكان جو الحجرة بفوضاها ، ورائحتها التفهة ، وهذين الكائنين الخاملين ، أشبه بعصارة مجتمع خائر العزم .

– هل تدخر شيئا من المال ؟

فبدأ روجيه يضيق بهذه المحادثة . وراح يبحث عن سترته . وأخرج منها حافظة صغيرة ، وألقاها إلى ميجريه .

– فتش !

كان بها ورقتان من فئة المائة فرنك ، وبعض أوراق النقد الصغيرة ، ورخصة

Add to Basket

قياد ، وإيصال ملابس من الورق المقوى القديم .

– ماذا تفعل إذا هضم حقك في الميراث .

– أنا لا أريد ميراثا .

– ألن تطعن في الوصية؟

– كلا !

رنت هذه الكلمة بطريقة غريبة. حتى أن ميجريه الذي كان ينظر إلى البساط، رفع رأسه قائلا:

– هل تكفيك ثلاثمائة وستون ألف فرنك؟

عندئذ تغير موقف الشاب. فسار ناحية المفتش وتوقف على بعد خطوة صغيرة منه، حتى تلامست أكتافهما. ودمدم وهو يضغط على قبضتيه:

– مرة ثانية!

وهنا راح مسلكه يصطبغ بشيء من السوقية! وكان موقفه ينبيء عن الأحياء البلدية، ومشاجرات الحانات.

– انني أسألك إذا كانت الثلاثمائة والستون ألف فرنك التي تخص كوشيه..

واستطاع ميجريه بالكاد أن يوقف ذراع محدثه. والا لكان تلقى لكمة من أقوى اللكمات في حياته!

– هدىء من روعك!

ولكن روجيه كان هادئا! لم يكن يحاول أن يخلص نفسه! كان شاحبا. ثابت النظرة. وكان ينتظر أن يتركه المفتش.

ألكي يعاود الضرب؟ أما سيلين، فكانت قد قفزت من فوق السرير، مع أنها كانت نصف عارية. وكانت تبدو مستعدة لفتح الباب والاستغاثة.

لقد مر كل شيء في هدوء. ولم يضغط ميجريه على رسغه إلا لثوان معدودات، وعندما ترك له حرية التحرك، لم يتحرك الشاب.

وحلت لحظة طويلة من الصمت، ظن الناظر أن كلا منهما يتردد في قطعها، كأنهما في معركة يتردد كل منهما في أن يكون أول من يضرب.

Add to Basket

وأخيرا تكلم روجيه:

– إنك تتدخل فى الأمور أكثر من اللازم!

والتقط من فوق الأرض عباءة بيت بنفسجية، وألقاها إلى صاحبته.

– هل تسمح أن تخبرنى عما تنوى عمله، عندما تتفق المانتى فرنك؟

– وماذا فعلت حتى الآن؟

– ليس هناك إلا اختلاف بسيط: والدك قتل ولن تستطيع أن تطالبه بالمال..

وهز روجيه كتفيه كمن يريد أن يقول إن محدثه لا يدرك من الأمر شيئا.

واكتنف المكان جو لا يمكن وصفه. لم يكن جو مأساة بالمعنى الحقيقى. وإنما كان شيئا آخر يبعث على التأثر! ربما كان جوا بوهيميا بلا شاعرية؟ ربما كانت تلك الحافظة وتلك المائتا فرنك؟..

أو تلك المرأة القلقة، التى تكشف لها حالا أن غدها لن يكون شبيها بأيامها الخالية وأن عليها أن تبحث لها عن سند جديد؟

أو بالأحرى كلا! أنه روجيه نفسه الذى كان يثير الرعب! لأن أعماله وحركاته لم تكن تتفق وماضيه، وتتناقض مع ما يعرفه ميجريه عن طباعه!

هدوءه.. ولم يكن فى ذلك متصنعا!.. كان هادئا فعلا.

– أعطنى مسدسك!

قالها المفتش فجأة.

فأخرجه الشاب من جيب فى سرواله، وقدمه وعلى شفتيه ظل ابتسامة.

– هل تعنى بأن...

لم يكمل، لأنه رأى المرأة على أهبة أن تصرخ فزعا. كانت لا تدرك شيئا، غير أنها كانت تشعر أن أمرا فظيعا يجرى.

وبدت السخرية فى عينى ميجريه.

كان الأمر أشبه بالهرب ولم يعد لدى ميجريه ما يقوله أم ما يأتيه. فتقهقر واصطدم عند خروجه بافريز الباب وهو يكتم سبابه.

وفى الشارع، كان قد فقد مزاجه المرح الذى كان يتمتع به فى الصباح. ولم

Add to Basket

يعد يرى فى الحياة أى مسلك هزلى. ورفع رأسه لكى يرى نافذة روجيه وصاحبته. كانت مغلقة. فلم ير شيئا .

كان معتل المزاج كما يحدث للمرء فجأة عندما يعجز عن الفهم.

لقد صدرت عن روجيه نظرتان أو ثلاث نظرات.. لم يستطع أن يفسرها . لم تكن تلك النظرات التي كان ينتظرها .. كانت نظرات لا تتفق وبقية ما جرى.. وعاد أعقابه، فقد نسى أن يسأل فى الفندق عن عنوان «نين» الجديد. فقال له البواب:

– لا أعلم. لقد دفعت أجر حجرتها وإنصرفت بحقيبتها! لا داعي لسيارة أجرة.. فيبدو أنها اختارت فندقا أرخص فى الحى.

– من فضلك.. لو .. لو حدث شيء في الفندق.. أجل شيء غير عادى.. فأرجوك أن تخبرني شخصيا، بالشرطة القضائية.. ميجريه مفتش مباحث.

لقد سخط على هذا الإجراء. فماذا يمكن أن يحدث؟ ولم يحل ذلك دون أن يفكر في الورقتين فئة المائة فرنك في الحافظة، ونظرة سيلين الخائفة.

وبعد مضى ربع ساعة، دخل ملهى «المولان بلو» من باب الفنانين . كانت الصالة فارغة مظلمة، وكانت المقاعد وحاشيات المقصورات مبطنة بحرير أخضر.

وعلى خشبة المسرح ست نساء يرتعشن من البرد، على الرغم من معاطفهن، لا يفتأن يكررن نفس الخطوة – خطوة من البساطة بحيث تثير الضحك – بينما رجل بدين أنبح صوته، يصرخ مرددا لحنا موسيقيا.

واحد!.. اثنان!.. ترالالالا.. كلا!.. ترالالالا.. ثلاثة!.. ثلاثة، ياإلهي!..

كانت نين هي ثانية النساء.. وقد عرفت ميجريه الذي كان واقفا بالقرب من أحد الأعمدة. ورآها هو أيضا. ولكن الأمر كان سيان بالنسبة له.

– واحد!.. اثنان!.. ترالالالا..

واستمر ذلك ربع ساعة. وكان الجو أشد برودة منه فى الخارج. وكانت قدما ميجريه جامدتين من فرط البرد. وأخيرا جفف الرجل جبينه، وألقى على فرقته سيلا من الشتائم عوضا عن التحية.

وصاح من بعيد مخاطبا ميجريه:

Add to Basket

– أمن أجلي ذلك؟

– كلا!.. بل من أجل..

واقتربت «نين» ضيقة، تسائل نفسها إذا كان من الواجب أن تصافح المفتش.

– لدي خبر مهم، جئت لأعلنك به.

– ليس هنا.. فنحن لا يحق لنا أن نستقبل أحداً في المسرح.. إلا في المساء. لأن ذلك يستوجب دفع رسوم الدخول..

وجلسا إلى مائدة بار صغير مجاور.

– لقد عثروا على وصية كوشيه.. ترك ثروته كلها لثلاث نساء.. ونظرت إليه متعجبة دون أن تفطن إلى الحقيقة.

– زوجته الأولى أولاً، مع أنها تزوجت من جديد.. ثم زوجته الثانية.. ثم أنت فظلت عيناها مثبتتين على ميجريه الذي شاهد حدقتيها تتسعان، ثم تمتلئان بالدموع. وأخيرا أخفت وجهها في يدها لكي تبكي.

Add to Basket

(٨)
المرض

كان مريضا بالقلب. وكان يعرف ذلك.

وابتعلت «نين» جرعة من مشهى في لون الياقوت.

– ولذلك كان لا يسرف في صحته. كان يقول إنه قد اشتغل بما فيه الكفاية، وان الوقت قد حان لكي يتمتع بالحياة.

– هل كان يتحدث عن الموت أحيانا؟

– في أغلب الأحيان!.. ولكن ليس عن.. عن هذه الميتة. كان يفكر في المرض الذى أصاب قلبه.

أما الملهى فقد كان أحد تلك البارات الصغيرة التى لا يتردد عليها إلا زبائنها . وكان صاحبه يتطلع إلى ميجريه خلسة كأنه برجوازى ثرى. وأمام الحانة، كان الحديث يدور حول سباقات العصر.

– هل كان حزينا؟

– هذا يصعب شرحه! لأنه لم يكن رجلا كغيره من الرجال.

فكان يحدث مثلا أن يكون فى المسرح، أو في غيره من الأماكن. كان يلهو، ثم إذا به يقول دونما سبب، وهو يضحك عاليا:

– ما أقذر الحياة، هيه، نينيت!..

– هل كان يهتم بابنه؟

Add to Basket

– كلا...

– هل كان يتحدث عنه؟

– تقريباً أبداً! فقط عندما كان يأتيه ليسأله مالا.

– وماذا كان يقول؟

– كان يتنهد قائلا: ياله من شقي مسكين!..

كان ميجريه قد أحس بذلك، فلسبب أو لآخر، قلما كان كوشيه يشعر نحو ابنه بعاطفة. بل كان يبدو أنه أصيب من ناحيته بنفور. بلغ حدا لم يحاول معه أن ينقذه! لأنه لم يكن يؤنبه على الإطلاق، بل كان يعطيه المال تخلصا منه، أو شفقة به.

– «جارسون» كم الحساب ؟

– أربعة فرنكات ونصف.

وخرجت نين معه من الحانة، ولبثا لحظة على طوار شارع «فونتين».

– أين تقيمين الآن؟

– شارع «لوبيك» أول فندق إلى اليسار. لم أعرف اسمه بعد. أنه مناسب..

– عندما تصبحين ثرية، سيكون في استطاعتك.. فندت عنها ابتسامة تندية..

– أنت تعرف جيدا أنني لن أكون ثرية ما حييت! فأنا لم أخلق لذلك..

الأغرب من ذلك هو أن ميجريه كان يشعر الشعور نفسه! لم تخلق «نين» لكي تكون غنية في يوم من الأيام! وهو لا يستطيع أن يوضح لذلك سببا.

– سأصحبك حتى ميدان بيجال، وأركب الترام من هناك.. وسارا الهويني، هو، ضخم، ثقيل، وهي ضئيلة، إلى جانب ظهر صاحبها العريض.

– آه لو علمت ما أقاسيه في وحدتي! ولحسن الحظ هناك المسرح، تدريبان «بروفتان» كل يوم، في انتظار الاستعراض الجديد..

Add to Basket

كان عليها أن تخطو خطوتين لكل خطوة من ميجريه، حتى أنها كانت تجرى تقريبا. وعند زاوية شارع بيجال، توقفت فجأة، بينما ضيق المفتش مابين حاجبيه، وراح يدمدم قائلا:

– الغبى!

ومع ذلك فلم يكن الناظر ليستطيع أن يرى شيئا. كان فى مواجهة فندق بيجال جمع من نحو أربعين شخصا. وعند عتبة الباب، شرطى يحاول أن يساعد الناس على المرور.

كان هذا كل مافى الأمر! غير أن المكان كان يكتنفه ذلك الجو الخاص، ذلك الصمت الذى لا يخيم على الشارع إلا عند وقوع المصائب. فتلجلجت نين وهى تقول:

– ماذا جرى؟.. فى الفندق الذى أنزل فيه!..

– كلا ! لا شىء ! عودى أنت..

– ولكن.. إذا..

فقال ميجريه بطريقة آمرة جافة:

– عودى أنت!

فأطاعت ، خائفة، بينما راح المفتش يمهد لنفسه طريقا بين الجمهور. كان يدخل بينه كالكبش. فراحت بعض النساء يمطرنه بالسباب. وعرفه شرطى المدينة وأدخله فى دهليز الفندق.

وكان مفتش القسم موجودا هناك، يتحدث إلى البواب الذى صاح وهو يشير إلى ميجريه:

– هاهو ذا!.. اننى أعرفه..

وتصافح رجلا الشرطة.. وكانت ثمة أصوات عويل، وأنين وتمتمة مبهمة تأتى من حجرة استقبال صغيرة تفضى إلى الردهة. فسأل ميجريه قائلا:

– كيف حدث هذا؟

Add to Basket

– أن الفتاة التي كانت تعيش معه صرحت بأنه كان يقف أمام النافذة، هادئا للغاية. كانت هي ترتدي ملابسها. أما هو فكان يتطلع إليها وهو يصفر.. ولم يتوقف عن صفيره إلا لكي يقول لها: إن لها فخذين جميلين، لكن ساقيها شديدتا النحافة.. ثم عاد إلى صفيره.. وفجأة لم تعد تسمع شيئا.. فأقلقها احساس بالفراغ.. فنظرت حيثما كان، ولكنه لم يكن موجوداً!.. وكان مستحيلا أن يكون قد خرج من الباب..

– مفهوم! ألم يصب أحدا عند سقوطه فوق الطوار؟

– أبدا! مات مباشرة! تحطم العمود الفقري في مكانين مختلفين.

وهنا أتى شرطي المدينة يعلن أمرا:

– هاهم!.

وراح مفتش القسم يشرح الأمر لميجريه:

– انها سيارة الإسعاف.. فلم يكن أمامنا غير هذا الإجراء. هل تعلم أن هناك عائلة يمكن إخبارها؟ عندما وصلت، كان البواب يقول لي إن الشاب تلقى زيارة في هذا الصباح.. قام بها رجل طويل قوي.. وكان يصف لي هذا الرجل في اللحظة التي وصلت أنت فيها! فكنت أنت المعني بالحديث! هل من الواجب أن أقوم بكتابة تقرير، أم أنك ستتكفل بكل شيء في الموضوع؟

– قم بعمل تقرير!

– وموضوع العائلة؟

– سأتكفل أنا به.

ودفع باب حجرة الاستقبال، فرأى شيئا ممدا على الأرض يختفي تماما تحت غطاء أحد الأسرة.

وكانت سيلين تجلس خائرة في أحد الكراسي، تصدر عويلا منتظما، بينما سيدة ضخمة، هي صاحبة الفندق أو مديرته، تسرف في مواساتها.

– الأمر يختلف إذا كان قتل نفسه من أجلك، أليس كذلك؟ لم يكن لك في

Add to Basket

الموضوع حول ولا قوة.. انك لم ترفضي له شيئا على الإطلاق.

ولم يرفع ميجريه الغطاء، بل أنه لم يظهر السيلين.

ومضت بضع لحظات، أتى المرضون بعدها فحملوا الجثة إلى سيارة الإسعاف التي تحركت صوب معهد الطب الشرعي.

عندئذ راح جمهور شارع بيجال ينفض رويدا رويدا . وكان من بقي من الفضوليين لا يدرون إذا كان الأمر حريقا، أم انتحارا أم هو القبض على سارق باطلاق النار عليه.

★★★

– كان يصفر .. وفجأة لم أعد أسمع شيئا.

كان ميجريه يصعد سلم ميدان الفوج، بطيئا، بطيئا. وكلما كان يقترب من الطابق الثاني، كان وجهه يزداد تقطيبا.

كان باب ماتيلد العجوز منفرجا، وربما كان المرأة مترصدة وراءه. ولكنه هز كتفيه، وشد الحبل الذي يتدلى أمام باب آل مارتان.

كان غليونه بين شفتيه، وفكر لحظة في أن يضعه في جيبه ثم راح يهز كتفيه، مرة أخرى، ثم سمع أصوات زجاجات تصطك وهمهمة مبهمة. وصوت رجلين يقتربان وأخيرا سمع فتح الباب.

– أجل ، يادكتور.. أجل، يادكتور.. شكرا، يادكتور.

كان السيد مارتان خائرا ، لم يستطع بعد أن يقوم بزينته، ورآه ميجريه على حاله التي تدعو للشفقة، والتي كان عليها في الصباح.

– أهذا أنت؟.

وتوجه الطبيب ناحية السلم، بينما راح السيد مارتان يدخل المفتش، ويلقى نظرة خاطفة في حجرة النوم.

– هل ساءت حالها؟

– لا ندري.. إن الطبيب لا يريد أن يقرر.. سيعود هذا المساء..

Add to Basket

– لا ترفع صوتك هكذا! زوجتك.

– الأمر عند سيان!.. انك تكذب!.. هذا مستحيل..

وأصبح من الصعب أن يتعرف الناظر السيد مارتان.. لقد فقد حياءه تماما مرة واحدة، وفقد معه تلك التربية المهذبة التى طالما تعلق بها.

وكان مما يثير فضول الناظر أن يتطلع إلى وجهه المفكك، وشفتيه اللتين ترتعدان، ويديه اللتين تضطربان فى الفضاء.

فأكد له ميجريه قائلا:

– أقسم لك أن هذين الخبرين رسميان..

– ولكن لماذا يفعل ذلك؟. أنه لأمر يؤدى إلى الجنون!. ومع ذلك فإن ما يحدث الآن فيه الكفاية!. فزوجتى فى طريقها إلى الجنون!. لقد رأيتها أنت!. وإذا استمرت هذه الحال، فسأجن أنا أيضا.. سنصبح كلنا مجانين!.

واكتنفت نظرته حركة سقيمة. كان قد فقد كل سيطرة على نفسه.

– ابنها الذى يلقى بنفسه من النافذة!. والوصية!.

كانت كل ملامح وجهه متقلصة، وفجأة، حلت أزمة من الدموع، حزينة، مضحكة، بغيضة.

– أرجوك!. هدىء من روعك.

– حياة بأسرها.. اثنان وثلاثون عاما.. كل يوم.. الساعة التاسعة.. دون أى لفت نظر.. كل ذلك لكى..

– أرجوك، تذكر أن زوجتك تسمعك، وأنها مريضة جدا..

– وأنا؟. هل تعتقد أننى لست مريضا، أنا؟. هل تعتقد أننى سأتحمل مثل هذه الحياة طويلا؟.

لم يكن رأسه ليتحمل البكاء، وهذا ماكان يجعل لدموعه تأثيراً.

– أنت لا دخل لك فى الموضوع، أليس كذلك؟ وهو ليس سوى ابن زوجتك.. وأنت لست مسئولا..

Add to Basket

وتطلع مارتان إلى المفتش، وقد هدأ فجأة، ولكن هذا لم يدم طويلا.

– أنا لست مسئولا..

ثم استشاط غضبا.

– ولكن هذا لا يمنع كوني هدفا لكل المتاعب! فها هنا تأتي أنت فتقص الحكايات!

وعلى السلم، ينظر إلى السكان شذرا.. وأؤكد أنهم يظنون أنني قتلت كوشيه هذا!. أكيد!. وفوق ذلك، فماذا يثبت لي أنك لا ترتاب فيّ أنت أيضا؟ فماذا جئت تفعل هنا؟ ها!. إنك لا تجيب!. فأنت لا تجرؤ على الإجابة.. يختارون الأضعف!. رجل عاجز عن الدفاع عن نفسه!. وزوجتي مريضة.. و..

وبينما هو يشير بيديه، إذا بمرفقه يصطدم بجهاز اللاسلكي الذي راح يتمايل، ويهوي على الأرض، فيتحطم مصدرا فرقعة أشبه بفرقعة المصابيح الكهربية التي تتحطم. عندئذ عاد الموظف الصغير إلى الظهور:

– مركز يدر ألفا ومائتين من الفرنكات.. ظللت في انتظاره ثلاث سنوات قبل أن أحصل عليه.

ووصلت أنة من الحجرة المجاورة، فأرهف السمع، ولكنه لم يتحرك.

– ألا تحتاج زوجتك إلى شيء؟

كان ميجريه هو الذي ينظر في الحجرة، وكانت مدام مارتان لاتزال راقدة، فتلقى المفتش نظرتها لكنه كان عاجزا عن تحديدها أهي نظرة ذكاء حاد؟ أم نظرة قلقة بتأثير الحمى؟

لم تحاول أن تتكلم.

وفي حجرة الطعام، أسند مارتان مرفقيه إلى خزينة صغيرة وتناول رأسه بين يديه. وراح يمعن النظر في الفرش، على بعد سنتيمترات من وجهه.

Add to Basket

– لماذا ينتحر؟

– افترض مثلا هو الذى..

وحل الصمت، ثم سمع صوت أزيز، وفاحت رائحة «شياط» نفاذة لم يتنبه لها مارتان. فسأل ميجريه قائلا:

– هل هناك شيء على النار؟

ودخل المطبخ الذي كان أزرق من البخار، فوجد على موقد النار سطلا من لبن سال مافيه، وأصبح يهدد بالانفجار. فأغلق صنبور الجهاز، وفتح النافذة فرأى فناء العمارة، ومعمل أمصال الدكتور رفيير، وسيارة الدكتور واقفة أسفل السلم، واستطاع أن يسمع تكتكة الآلات الكاتبة، داخل المكاتب.

وإذا كان ميجريه يتلكأ فى المطبخ، فلم يكن ذلك بلا داع. لقد أراد أن يدع لمارتان فسحة من الوقت يهدأ فيها، ويستعيد ثباته، فراح يحشو غليونه فى بطء، ويشعله من مصباح معلق فوق الموقد. وعندما عاد إلى حجرة الطعام، لم يكن مارتان قد تحرك من مكانه، ولكنه كان قد هدأ. فانتصب متنهدا ويحث عن منديل، وتمخط بصوت مرتفع.

– يبدو أن ذلك سينتهي نهاية سيئة، أليس كذلك؟

فأجاب ميجريه:

– هناك قتيلان!..

– قتيلان..

إن المجهود . مجهود ضخم، ذلك الذي بذله مارتان ليظل مسيطرا على أعصابه بعد أن كان على وشك الانفعال من جديد.

– فى هذه الحالة أعتقد أنه يستحسن..

– يستحسن؟..

كان المفتش لا يكاد يتكلم. كان يحبس أنفاسه. كان يحس بضيق يطبق على صدره، لأنه كان يشعر أنه قريب من الحقيقة.

Add to Basket

– أجل – دمدم بها مرتان لنفسه – ليكن!. فلا مفر.. لا مفر..

ومع ذلك فقد سار بطريقة آلية حتى الباب المفتوح، باب حجرة النوم، ودس نظرته في الحجرة .

وظل ميجريه ينتظر، ثابتا، صامتا.

لم يقل مارتان شيئا، ولم يسمع صوت زوجته، ولم يمنع ذلك أن شيئا ماكان يبدو أنه يجرى.

واستمر الحال طويلا، فبدأ المفتش يفقد صبره.

– وبعد؟

فتحول الرجل ناحيته، في بطء، بوجه جديد.

– ماذا؟

– كنت تقول أن..

فحاول مارتان أن يبتسم.

– أن ماذا؟

– أنه يستحسن، لتجنب مآس جديدة..

– أنه يستحسن ماذا؟..

ومر بيده فوق جبينه، كشخص يجد صعوبة في إثارة ذكرياته.

– أنا آسف! أنني مضطرب.

– لدرجة أنك نسيت ماكنت تريد أن تقول؟

– أجل .. لم أعد أدرى.. أنظر!. أنها نائمة..

كان يشير إلى مدام مارتان التى أغلقت عينيها، وغدا وجهها أحمر قانيا، ربما بسبب وضع الثلج فوق جبينها.

– ما الذى تعرفه؟

وجه إليه ميجريه هذا السؤال بلهجة من يخاطب شخصاً مشبوها على قدر كبير من الحذق.

Add to Basket

– أنا؟

وبعد هذا الاستفسار أصبحت كل الإجابات من هذا النوع!. الذى يطلب عليه «استعباطا».

– كنت على وشك أن تخبرنى بالحقيقة.

– الحقيقة؟

– هيا! لا تحاول أن تبدو عبيطا. أنت تعرف قاتل كوشيه.

– أنا؟ أنا أعرف؟..

إذا كان مارتان لم يتلق في حياته صفعة واحدة، فقد كان قاب قوسين أو أدنى من صفعة ساخنة يتلقاها من يد ميجريه!.

أما ميجريه فكان يضغط على فكيه وينظر إلى المرأة الساكنة التى كانت نائمة أو كانت تتظاهر بالنوم، ثم إلى الرجل الذى لا يزال جفناه منتفخين، وملامحه مشدودة بتأثير الأزمة السابقة وشاربه مدلى.

– هل تتحمل مسئولية ما يمكن أن يحدث؟

– ماذا يمكن أن يحدث؟

– إنك مخطىء ياسيد مارتان!

– مخطىء لماذا؟

ماذا حدث؟ إن الرجل الذى كان على أهبة الكلام، ظل دقيقة بين الحجرتين، وعيناه مثبتتان على سرير زوجته، ولم يسمع ميجريه شيئا، ولم يتحرك مارتان. والآن، هاهى ذى تنام! وهو يتظاهر بالبراءة!

– اننى أعتذر لك.. أعتقد أننى أفقد صوابى فى بعض الأحيان.. وأنت لا تنكر أن الأمر يبعث على الجنون..

ولم يمنع ذلك أنه ظل حزينا، بل مغموما. كانت تبدو عليه هيئة شخص محكوم عليه. وكانت نظرته تحاول أن تتجنب وجه ميجريه، وتتنقل بين الأشياء العادية، وأخيرا تعلقتا بجهاز اللاسلكى. فشرع يلتقط أجزاءه، وقد

Add to Basket

انحنى على الأرض موليا ظهره للمفتش:

– متى سيعود الطبيب؟

– لا أدرى .. قال «هذا المساء»..

فخرج ميجريه تاركا الباب يصطك خلفه، فوجد نفسه وجها لوجه أمام ماتيلد العجوز التي فزعت لذلك حتى أنها لبثت ساكنة وقد فغرت فاها.

– أليس لديك ما تقولينه لي، أنت؟ هيه؟ هل ستدعين أيضا أنك لا تعلمين شيئا؟..

وحاولت أن تستعيد ثباتها، فأدخلت يديها تحت مئزرها ، في حركة آلية لربة بيت عجوز.

– تعالى ندخل عندك..

فسارت تزحلق نعلى اللباد فوق الأرض، وترددت فى دفع بابها المنفرج.

– هيا! ادخلى..

ودخل ميجريه بدوره، وأعاد إغلاق الباب بضربة من قدمه، ولم يوجه نظرة واحدة إلى المجنونة التى كانت تجلس أمام النافذة.

– والآن تكلمى!.. مفهوم؟..

وتداعى بكل ثقله فوق أحد الكراسى.

Add to Basket

(٩)
صاحب المعاش

أولا، إنهما يقضيان حياتهما فى عراك!

لم يتحرك ليجريه ساكن. لقد غاص حتى رقبته فى كل هذه القذارة اليومية، التى تبعث على الاشمئزاز أكثر من المأساة نفسها.

وأمامه العجوز، يبدو عليها تعبير مخيف عن الابتهاج والتهديد كانت تتكلم وتنوى أن تتكلم ثانية! عن بغض لآل مارتان، وللقتيل ولسكان البيت جميعا، وعن بغض للإنسانية جمعاء! وعن بغض ليجريه نفسه!

كانت لاتزال واقفة، ويداها مضمومتان فوق بطنها الضخم الطرى، كأنها ظلت حياتها فى انتظار هذه اللحظة.

لم يكن ما يطفو على شفتيها ابتسامة. وإنما هو الاغتباط الذى كان يذيبها!

- «أولا» أنهما يقضيان حياتهما فى عراك.

كان لديها وقت. كانت تقطر جملها تقطيرا. وكانت تعطى نفسها فسحة من الوقت لكى تعبر عن ازدرائها للناس الذين يتعاركون.

- ولا حتى مثل جامعى الخرق! وهذا الوضع يرجع إلى فترة طويلة! حتى أننى تساءلت كيف لم يقتلها حتى الآن.

- آه: هل كنت تتوقعين أن؟..

- عندما يعيش المرء فى منزل كهذا، فجيب أن يتوقع كل شىء..

Add to Basket

كانت متنبهة إلى نغمات صوتها. فهل كانت أبعث على البغض من السخرية، أم أبعث على السخرية من البغض؟

كانت الحجرة فسيحة. وكان بها سرير منكوش، عليه ملاءات رمادية يبدو أنها لم تتعرض للهواء الطلق أبدا. ومنضدة، ومرآة قديمة، وموقد.

وفي كرسي موسد، تجلس المجنونة، التي كانت تنظر أمامها، وعلى شفتيها ابتسامة خفيفة رقيقة.

وسأل ميجريه:

– لا مؤاخذة!. هل تتلقين زيارات في بعض الأحيان؟

– لا!.

– وأختك ألا تخرج من هذه الحجرة؟

– أحيانا، تفر إلى السلم..

رائحته تبعث على القنوط. رائحة فقر قذر، رائحة هرم، وربما رائحة موت.

لاحظ أن الزوجة هي التي تهاجم دائما!

كان ميجريه يملك من القوة ما يكفي توجيه السؤال إليها. كان ينظر بغموض. كان ينصت لها.

– من أجل مسائل تتعلق بالمال، طبعا!. وليس من أجل مسائل تتعلق بها كامرأة.. مع أنها ذات مرة، وهي تقوم بحساباتها، افترضت أنه ذهب إلى منزل خصوصي، فتلورن وجهه مائه لون..

– هل تضربه؟

كان ميجريه يتحدث بلا سخرية. لم يكن افتراضه هذا أكثر هزاء من غيره. كان يسبح في بحر من الأعاجيب حتى أن أي شيء ليثير الدهشة.

– لا أعرف إذا كانت تضربه أم لا، ولكن، على كل، فهي تكسر الأطباق.. ثم تبكي، قائلة إنها لن تستطيع أن تحصل على بيت مناسب.

– باختصار، هل يحدث في كل يوم مشاجرات من هذا القبيل؟

– ليست مشاجرات كبيرة! وإنما بعض التوبيخ والتأنيب. وفي الأسبوع

Add to Basket

مشاجرتان أو ثلاث مشاجرات كبيرة.

– وهذا يعطيك فرصة للعمل!

لم تكن واثقة أنها فهمت ونظرت إليه بقليل من القلق.

– ماهى التأنيبات التى توجهها إليه فى أغلب الأحيان؟

– عندما لا يملك المرء ما يعول به إمرأة ، فإنه لا يتزوج!

– لا يصح لرجل أن يخدع امرأة فيجعلها تعتقد أنه سيثرى.. بينما الحقيقة غير ذلك.

– إن المرء لا يسمح لنفسه بالاستحواذ على امرأة من رجل مثل كوشيه، قادر على كسب الملايين..

– إن الموظفين جبناء.. فيجب أن يعمل المرء بنفسه، وأن يكون محبا للمخاطرة، والمبادرة، إذا أراد أن يحصل على شيء..

مسكين مارتان، بقفازه، ومعطفه، وشاربيه اللمعين بالدهان.

واستطاع ميجريه أن يتخيل كل الجمل التي كانت تلقى بها زوجته فوق رأسه، مطرا دقيقا، أو سيلا غزيرا.

ومع ذلك ، فقد قام بما يستطيع أن يقوم به: ومن قبله، كان كوشيه هو الذى يتلقى هذا التأنيب والتوبيخ. لابد أنها كانت تقول له:

«أنظر إلى السيد مارتان! إنه رجل ذكى! وهو يفكر أنه ربما يتزوج، فى يوم من الأيام ولسوف تتسلم زوجته معاشا لو حدث له شيء! بينما أنت»..

كان هذا كله يبدو فى صورة تهمه جسيمة! لقد خدعت مدام مارتان نفسها، وخدعها الغير، وخدعت الناس جميعا!

كان هناك خطأ مروع هو أساس كل شيء!

فقد كانت ابنة حلوانى «سان مور» تريد المال! هذا أمر قد تقرر! وكان هذا الأمر يمثل ضرورة! وكانت هى تشعر بذلك! لقد ولدت لكى تحصل على المال، ونتيجة لذلك، فقد كان على زوجها أن يجنى المال.

أكان كوشيه لا يجنى مالا كافيا؟ ولن يكون لها معاش لو مات؟ لقد تزوجت من

مارتان! هذا كل مافي الأمر!

كل ماهناك أن كوشيه هو الذي أثرى بالملايين، بعد فوات الأوان!. ولم يكن من الممكن تركيب أجنحة لمارتان، ولم يكن من الممكن دفعه إلى أن يترك مكتب التسجيل وأن يعمل هو الآخر في بيع الأمصال أو أي شيء يدر الربح!

كانت شقية! كانت دائما شقية! وكانت الحياة تلهو بخداعها بطريقة شنيعة!

كانت عينا العجوز الخضراوان الضاربتان إلى الزرقة، مثبتتين على ميجريه، كانتا كعيني قريص البحر.

– وهل كان يأتي ابنها لزيارتها؟

– أحيانا.

– وهل كانت تلومه وتؤنبه هو الآخر؟

ولا يغيب عنا أن العجوز ظلت تنتظر هذه اللحظة سنوات وسنوات!. لم تكن بها عجلة!. كان أمامها فسحة من الوقت!.

– كانت تقدم له النصح..

«أبوك غني! وكان عليه أن يخجل لأنه لم يدبر لك مركزا مرموقا! أنك حتى لا تملك سيارة.. فهل تعرف من السبب؟ إنها تلك المرأة التي تزوجته من أجل ماله!. لأنها لم تتزوجه إلا من أجل ذلك!.

«مع غض النظر عن أن الله وحده يعلم ما تعد لك في المستقبل. فهل تظن أنك ستحصل على شيء من الثروة التي تخصك؟..

«لذلك فيجب عليك الآن أن تستحوذ على المال، وأن تدخره في مكان أمين..

«سأحفظه لك، أنا، لو أردت.. ها!. هل تحب أن أحفظه لك»؟..

وكان ميجريه، وهو يتطلع إلى الأرض القذرة.. يفكر، ورأسه في ثورة.

كان يعتقد أنه توصل، في هذا الخليط من الإحساسات، إلى إحساس سائد، ربما ولد بقية الإحساسات الأخرى: إنه القلق! قلق وبيل، يبعث على السقم، ويقترب من الجنون..

كان مدام مارتان تتحدث كثيرا عما يمكن أن يقع: موت الزوج، والشقاء الذي

Add to Basket

ستلقاه إذا لم يترك لها معاشا.. وكانت تشفق على ابنها من هذا الشقاء.

كان الأمر أشبه بكابوس مخيف، أو بفكرة ملكت عليها دنياها.

– وبم كان يجيبها روجيه؟

– كان لا يلبث طويلا!. كان يبدو أن لديه أعمالا أهم في الخارج..

– وهل حضر يوم الجريمة؟

– لست أدري.

ومن ركنها، كانت المجنونة، وهي في مثل هرم ماتيلد، لاتزال تتطلع إلى المفتش وهي تبتسم ابتسامة جذابة.

– وهل دار بين مارتان وزوجته في ذلك اليوم نقاش أكثر أهمية من المعتاد؟

– هل نزلت مدام مارتان في حوالي الثامنة مساء؟

– لم أعد أذكر!. إنني لا أستطيع أن أظل طول الوقت في الممر.

هل كان ذلك عدم إدراك، هل كان سخرية فائقة؟. على كل، فقد كانت تحتفظ بشيء لم تصرح به، وكان ميجريه يشعر بذلك. إن الصديد كله لم يخرج تماماً!.

– في المساء، تعاركا..

– لماذا؟

– لست أدري..

– ألم تسمعيهما؟

لم تجب. وكان تعبير وجهها يقول:

– هذا شيء يخصني!

– وماذا تعرفين أيضا؟

– أعرف لماذا مرضت.

وكان هذا هو الفوز!. كانت يداها ترتجفان، ولا تزالان مضمومتين فوق بطنها.

كان هذا غاية طريق بأسره.

– لماذا؟

كان هذا السؤال يتطلب تلذذا.

Add to Basket

– لأن .. إنتظر حالما أرى أختي إذا كانت في حاجة إلى شيء.. «فاني» ألست ظمأى .. جوعى؟. أليس ساخنا جدا؟..

كان موقد الزهر أحمر تماما، فراحت العجوز تسعى في الحجرة وهي تزلق على نعليها المصنوعين من اللباد، واللذين لا يصدران أية ضوضاء.

– لأن؟

– لأنه لم يحضر النقود!

لقد تهجمت هذه الجملة وأتبعتها بصمت نهائي. انتهى كل شيء لقد أعرضت عن الكلام! لقد قالت مافيه الكفاية.

– أية نقود؟

مجهود ضائع فانها لن تجيب على أي سؤال.

– هذا شيء لا يخصني!. لقد سمعت هذا!. ولتفعل أنت به ما تريد.. والآن حان الوقت لكي أعتني بأختي..

وانصرف تاركا وراءه العجوزين منصرفتين إلى أمور لا يعلمها إلا الله.

لقد اعتل لذلك.. وتقلب قلبه، كما لو كان أصابه دوار البحر.

«لم يحضر النقود»..

ألا يمكن تفسير ذلك؟ لقد قرر مارتان أن يسرق الزوج الأول ربما لكيلا يلام على وضاعته.. ورأته هي من النافذة.. وخرج هو بثلثمائة وستين ورقة.. ولكنه عندما عاد، لم تكن النقود معه! فهل وضعها في مكان أمين؟ أم سرق هو بدوره؟ أم تملكه الخوف فتخلص من هذه النقود بالقائها في نهر «السين»؟ وهل قام بالقتل؟ هو، السيد مارتان الضيل، ذو المعطف المطاط؟

لقد أراد أن يتكلم قبل برهة. وكان الإرهاق الذي يشعر به هو إرهاق شخص جان لم يعد يجد في نفسه القوة لكي يلزم الصمت، ويفضل السجن فورا عن قلق الإنتظار.

ولكن لماذا كانت زوجته هي التي مرضت؟

وبالأخص لماذا كان روجيه هو الذي انتحر؟

Add to Basket

ثم، أليس خيال ميجريه هو الذي صور كل هذا؟ لماذا لا يرتاب في «نين». أو في مدام كوشيه، أو حتى في العقيد؟

وبينما كان المفتش ينزل السلم، قابل السيد سان – مارك الذي كان عائدا من الخارج.

– آه! هذا أنت..

ومد له يدا مجاملة.

– أثمة جديد؟.. هل تعتقد أن الموضوع سينتهي؟.. ومن فوق، سمعت صرخة المجنونة، التي لابد أن تكون أختها قد تركتها لكي تذهب فتتخذ مخفرها خلف أحد الأبواب!

★★★

كانت الجنازة رائعة . اشترك فيها كثير من علية القوم، وخاصة عائلة مدام كوشيه وجيران شارع الهوسمان.

لم يكن يشذ عن المجموع إلا أخت كوشيه، التي كانت تسير في الصف الأول، مع أنها عملت المستحيل لكي تبدو أنيقة. كانت تبكي. وكان لها بوجه خاص طريقة مزعجة في التمخط، كانت تستجلب لها في كل مرة نظرة ساخطة من حماة القتيل.

وخلف العائلة مباشرة، كان موظفو معامل الأمصال.

وكانت ماتليد العجوز تسير مع الموظفين في كبرياء، واثقة من نفسها ومن حقها في الحضور. وكان ثوبها الأسود لا يصلح إلا لذلك: تشييع الجنازات، وتلاقت نظرتها مع نظرة ميجريه. فتنازلت وأومأت له إيماءة خفيفة.

كانت تتدفق أصوات الأراغن وصوت المرتل الجهير، وصوت الشماس الحاد: «تبتلينا بمحنة».. وسمعت ضوضاء كراسي تتحرك. وكان النعش عاليا، ومع ذلك فقد كان يختفي تحت الزهور والأكاليل.

«سكان المنزل رقم ٦١، ميدان الفرج».

ويبدو أن ماتليد دفعت حصتها في الأكليل. فهل سجل آل مارتان اسمهما في

Add to Basket

قائمة المساهمين، هما أيضا؟

لم ير أحد مدام مارتان. فقد كانت لاتزال فى سريرها.

«خلصنا، يارب».. وحان موعد صلاة الجنازة. النهاية. فتقدم رئيس التشريفات الذى كان يقود الركب في بطء. وفى أحد الأركان، بالقرب من كرسى اعتراف، لمح ميجريه «منين» وكان أنفها أحمر قانيا دون أن تكلف نفسها مشقة معالجته بذرة من المسحوق فقالت:

– شيء فظيع، أليس كذلك؟

– ماهو الفظيع؟

– كل شيء ! لست أدرى! هذه الموسيقى .. ورائحة الأقحوان هذه.. كانت تعض شفتها السفلى لكى تحبس زفرة .

– وكما تعلم .. لقد فكرت طويلا .. أية حسن ! ويحدث أن أقول لنفسى أن قلبه كان يحدثه ..

– هل ستذهبين إلى القبر ؟

– ما رأيك ؟ من الممكن أن يرونى هناك ؟ .. قد يكون من الأفضل ألا أذهب . ومع ذلك فإننى أحب أن أعرف المكان الذى سيودعونه فيه .

– يكفى أن تسألى الحارس .

– أجل ..

كانا يتهامسان . كانت خطوات آخر الحاضرين تخف فى الجهة الأخرى من الباب . وشرعت بعض السيارات فى المسير :

– كنت تقولين إن قلبه كان يحدثه ؟

– ربما ليس بأنه سيموت بهذه الطريقة .. ولكنه كان يدرك أنه لن يعمر طويلا .. فقد كان مصابا بمرض خطير فى القلب .

كان الناظر يشعر أنها فى قلق شديد ، وأن عقلها ظل ساعات وساعات لايدور إلا حول موضوع واحد .

– كلمات كان يقولها وتمر الآن بخاطرى ..

Add to Basket

– هل كان خائفا ؟

– لا ! بالعكس . فعندما كان يتصادف أن نتحدث عن القبر ، كان يقول ضاحكا:

« – أنه المكان الوحيد الذى يطمئن فيه الإنسان .. مكان صغير جميل بجوار الأب لاشيز .. »

– هل كان يمزح كثيرا ؟

– بخاصة عندما لا يكون مبتهجا .. هل تفهم ؟. كان لايحب أن يلاحظ الناس أنه مهموم . عندئذ ، كان يبحث عن أى سبب لكى يتحرك ، لكى يضحك ..

– عندما كان يتحدث عن زوجته الأولى ، مثلا !

– إنه لم يحدثنى عنها مطلقا !

– ولا عن الأخرى ؟

– لا .. كان لا يتحدث عن شخص بعينه . كان يتحدث عن الناس عامة .. كان يرى أنهم حيوانات صغيرة مضحكة .. وإذا حدث أن سلبه عامل المطعم شيئا ، فإنه ينظر إليه بعين أكثر عطفا من الآخرين .. ويقول :

– نذل ! .

« وكان ينطق بهذه الكلمة وهو يلهو مسرورا ! »

كان الجو باردا . طقس « توسان » . ولم يكن لدى ميجريه ونين مايفعلانه فى حي سان – فيليب – دى رول هذا .

– إلى اللقاء فى « المولان بلو » ، هه ؟

– ليكن !

– سأمر بك ذات مساء ..

وشد ميجريه على يدها ، ثم قفز فى إحدى الحافلات . كان فى حاجة للخلو إلى نفسه ، والتفكير ، أو بالأحرى كان فى حاجة لأن يترك لعقله الحبل على الغارب . وراح يتخيل الموكب الذى لن يلبث أن يبلغ المقابر .. ومدام كوشيه .. والعقيد .. والأخ .. والأشخاص الذين يمكن أن يناقشوا الوصية الغريبة .

Add to Basket

– ماذا كانا يفعلان حول صناديق القمامة ؟

فهنا تكمن عقدة المأساة .. لقد حام مارتان حول صناديق القمامة بحجة البحث عن قفاز لم يجده ، ومع ذلك كان يرتديه صباح اليوم التالى . وفتشت مدام مارتان فى القانورات ، هى الأخرى ، مدعية البحث عن ملعقة من الفضة ألقيت عفوا ..

– .. « لأنه لم يحضر النقود .. »

هكذا قالت ماتليد العجوز .

فعلا فى هذه اللحظة سيكون الأمر مسليا فى ميدان الفوج ! والمجنونة التى تركت وحيدة ، ألا تعوى كعادتها ؟

وكانت الحافلة كاملة العدد ، تحرق المحطات . وسمع راكب ، كان قريبا من ميجريه وهو يقول لصاحبه :

– هل قرأت حكاية الأوراق المالية فئة الألف فرنك ؟

– لا ! . ماهذه الحكاية ؟

– تمنيت لوكنت هناك .. عند جسر بوجيفال .. صباح أول أمس .. أوراق مالية فئة الألف فرنك تتماوج مع التيار .. كان أول من رآها ملاح ، وقد استطاع أن يلتقط بعضها .. ولكن عامل الهاويس لاحظ الأمر .. فاستدعى الشرطة .. حتى أن أحد رجال الشرطة كان يرقب صيادى النقود .

– صحيح ؟ . ولم يمنعهم ذلك من الاستيلاء على بعضها ..

– وقالت الصحيفة اليومية إنهم عثروا على نحو ثلاثين ورقة ، لكنه لابد أن هناك أوراقا أخرى كثيرة ، لأنهم استطاعوا فى « نانت » أيضا أن يلتقطوا ورقتين .. هيه ! الأوراق المالية التى تتماوج على طول مجرى السين ! .. إنها أعظم من السمك البورى ..

ولم يتحرك لميجريه ساكن .. كان له رأس زيادة عن الناس . وكان وجهه هادئا.

– .. « لأنه لم يحضر النقود .. »

Add to Basket

إذن ، هذا هو بيت القصيد ؟ ترى هل استولى الخوف على مارتان أو أنبه ضميره حينما تذكر جريمته ؟ مارتان الذى صرح بأنه كان يتنزه فى ذلك المساء فى جزيرة سان - لوى ليطرد آلامه العصبية . ومع ذلك فقد ندت عن ميجريه ابتسامة ، لأنه تخيل مدام مارتان التى رأت كل شىء من نافذتها والتى كانت تنتظره .

ثم عاد زوجها ، متعبا ، خائرا . كانت تتابع أفعاله وحركاته ، وكانت تنتظر أن ترى الأوراق المالية ، وربما كانت تنتظر أن تعدها .

وخلع ملابسه وتهيأ للنوم .

أليست هى التى تناولت ملابسه وراحت تنقب فى جيوبها ؟

وبدأ القلق .. كانت تتطلع إلى مارتان بشاربيه الحزينين .

- الـ .. الـ .. النقود ؟

- أى نقود ؟ ..

- لمن أعطيتها ؟ . رد ! . لا تحاول أن تكذب ..

وغادر ميجريه الحافلة عند « الجسر الجديد » ومن هناك استطاع أن يلمح نوافذ مكتبه . وفى أثناء ذلك فوجىء بنفسه يقول بصوت خافت :

- أؤكد أن مارتان ، ما أن رقد فى سريره ، حتى شرع فى البكاء ! ..

Add to Basket

(١٠)
أوراق تحقيق الشخصية

بدأ هذا في « جومون» . كانت الساعة تشير إلى العاشرة مساء وكان بعض مسافرى الدرجة الثالثة يتوجهون ناحية مكاتب الجمرك بينما شرع الموظفون فى تفتيش عربات الدرجة الأولى والثانية .

وثمة نفر من المسافرين المدققين يعدون حقائبهم مقدما ، فيعرضون أمتعتهم فوق المقعد الصغير . وكان هذا ما فعله رجل قلق العينين من الدرجة الثانية ، كان يجلس في عربة لم يكن بها سواه ، الزوجان بلجيكيان متقدمان فى السن .

كانت أمتعة هذا الرجل تمثل نموذجا للنظام والحيطة .. فالقمصان ، تلافيا للإتساخ ، كانت ملفوفة في جرائد يومية . وكان هناك إثنا عشر زوجا وخفان قديمان .

وكان المرء يشعر بيد امرأة ، وراء هذا الترتيب . فلم يكن هناك موضوع لم يستغل . ولم يكن هناك شئ يمكن أن يتجعد أو ينثنى . وقلب أحد موظفى الجمرك فى هذه الأشياء بإهمال ، وهو يرقب الرجل الذى يرتدى المعطف المطاط والذى يملك مثل هذه الأمتعة .

– شكرا !

وخط على الأمتعة صليبا بالطباشير .

Add to Basket

– أي طلب ، أنتما أيضا ؟

فسأل الرجل قائلا :

– لا مؤاخذة ! . أين تبدأ بلجيكا بالضبط ؟

– هل ترى أول سياج هناك ؟ كلا! إنك لا ترى شيئا! ولكن أنظر .. عد المصابيح .. والثالث إلى اليسار .. هو الحد الفاصل .

كان هناك صوت في الدهليز ، يكرر أمام كل باب :

– أعدوا جوازات السفر ، والبطاقات الشخصية !

وبذل رجل المعطف المطاط مجهودا كبيرا ليعيد وضع حقائبه في الشبكة.

– جوازك ؟

فالتفت فرأى رجلا يضع على رأسه قبعة رمادية .

– فرنسي ؟. بطاقتك الشخصية .

واستغرق ذلك عدة لحظات . كانت أصابع المسافر تنقب خلالها في الحافظة .

– ها هي ذي ياسيدي!

– عظيم ! مارتان أنجار إميل .. عظيم !. اتبعني ..

– إلى أين ؟

– يمكنك أن تحمل حقائبك ..

– ولكن .. القطار ..

– ولكن .. القطار ..

وهنا راح البلجيكيان ينظران إليه بفزع ، مضطرين رغما عن ذلك ، فقد صحبا في سفرهما أحد المزورين .. وراح مارتان ، وقد اتسعت حدقتاه ،

Add to Basket

يرتقى المقعد ليتناول حقائبه .

– أقسم لك .. مالذى ؟..

– أسرع .. فسيرحل القطار ..

وراح الشاب ذو القبعة الرمادية يدحرج أثقل حقيبة على رصيف المحطة كان الظلام شاملا . وعلى ضوء هالات المصابيح ، كان بعض الأشخاص يهرولون ، عائدين من المقصف ، ودوى صوت الصفارة .. وكانت هناك سيدة تتحدث مع بعض موظفى الجمرك الذين كانوا لا يسمحون لها بالرحيل .

– سنرى ذلك صباح غد .

وكان السيد مارتان يتبع الشاب وهو يحمل حقائبه بصعوبة . إنه لم يتصور فى حياته رصيفا بهذاالطول . كان حقا ميدان سباق لا ينتهى ، خاليا ، محاطا بأبواب سرية .

وأخيرا ، دفع الباب الأخير :

– أدخل !

كان ظلاما دامسا . لم يكن ثمة غير مصباح فى مشكاة خضراء ، معلق فوق المنضدة ، وكان من الانخفاض بحيث لم يكن يضئ إلا بعض الأوراق . ومع ذلك فقد كان فى أقصى الحجرة شئ ما يتحرك . ثم سمع هذا الصوت الودود :

– صباح الخير ياسيدى مارتان!.

ثم برز فى الظلمة شبح ضخم : إنه المفتش ميجريه متدثرا فى معطفه الثقيل ذى الياقة القطيفة ، ويداه ، فى جيبه .

– لا داعى للمضايقة . سنأخذ من جديد قطار باريس الذى سيصل بعد قليل على الخط الثالث ..

فى هذه المرة كان الأمرا أكيدا! . كان مارتان يبكى ، فى صمت ويداه

Add to Basket

ثابتتان بسبب الحقائب التى أحسن ترتيبها .

★★★

كان المفتش ، الذى كان يتولى مراقبة المنزل رقم ٦١، بميدان الفوج ، قد اتصل بميجريه تليفونيا ، قبل ذلك بعدة ساعات .

– صاحبنا في طريقه للهرب .. لقد ركب سيارة أجرة واتجه بها إلى محطة الشمال ..

– دعه يهرب .. واستمر فى مراقبة المرأة ..

وأخذ ميجريه نفس القطار الذى ركبه مارتان . ونزل فى الديوان المجاور مع اثنين من ضباط الصف ، ظلا طوال الطريق يقصان المغامرات الغرامية .

ومن آن لآخر كان المفتش يلصق عينه بالفتحة التي تفصل بين اليوانين فيلمح مارتان حزينا .

وفى «جومون» كانت حادثة البطاقة الشخصية!. والدخول فى مكتب المفتش المختص .

والآن ها هما يعودان إلى باريس ، فى ديوان خاص . كانت يدا مارتان خاليتين من القيود . وكانت حقائبه فى الشبكة فوق رأسه ، وكانت إحداهما غير محكمة الوضع ، فكانت تهدد بالسقوط فوقه .

وحتى « موبوج» لم يكن ميجريه قد وجه سؤال واحدا .

كان أمرا يختلط له العقل! . كان قابعا فى أحد الأركان ، وغليونه بين أسنانه .

وكان لا يكف عن التدخين وهو يرقب صاحبه بعينيه الصغيرتين اللاهيتين.

عشر مرات ، بل عشرين مرة ، فتح مارتان فمه دون أن يقرر الكلام ،

وعشر مرات بل عشرين مرة ، لم يتنبه له المفتش .

ومع ذلك فقد حدث هذا أخيرا : صوت لا يمكن وصفه ، وقد لا تستطيع مدام مارتان نفسها أن تتعرفه .

– أنا الذى ...

وكان ميجريه لا يزال معرضا عن الكلام ، كانت حدقتاه تقولان :

– صحيح ؟..

– كنت .. كنت آمل أن أجتاز الحدود ..

هناك طريقة للتدخين ينقبض لها من ينظر إلى الشخص الذى يدخن : ففى كل نفخة تنفرج الشفتان فى تلذذ .. ولا يندفع الدخان إلى الأمام ، ولكنه يتبدد فى بطء ، مكونا سحابة حول المدخن .

كان ميجريه يدخن بهذه الطريقة ورأسه يتمايل ذات اليمين وذات الشمال تبعا لحركات العربة .

ومال مارتان ، ويداه البائستان فى القفاز ، وعيناه تطفحان .

– هل تعتقد أن هذا سيستغرق طويلا ؟ كلا، أليس كذلك ؟ مادمت سأعترف .. لأننى سأعترف بكل شئ ..

ماذا كان يفعل حتى لا يبكى؟ لابد أن أعصابه كانت تذيقه ألما مريرا . ومن آن لآخر كانت عيناه تبدوان متوسلتين ، تقولان لميجريه بكل وضوح :

– ساعدنى إذن!.. إنك ترى أن الإرهاق قد بلغ منى مأربه .

ولكن المفتش كان لا يتحرك . وكان ، بهدوئه ، ونظرته الفضولية التى تخلو من كل عاطفة ، كأنه يقف فى حديقة للحيوانات ، أمام قفص بداخله حيوان غريب .

– لقد فاجأنى كوشيه ... عندئذ .

Add to Basket

Add to Basket

وتنهد ميجريه ، تنهيدة لا تريد أن تعبر عن شئ ، أو بالأحرى يمكن أن تفسر بمائة طريقة مختلفة ..

«سان - كانتان»! وسمعت خطوات أقدام في الممر ، وحاول مسافر ضخم أن يفتح باب الديوان ، فلاحظ أنه مغلق ، فلبث لحظة ينظر إلى الداخل ، وأنفه ملتصق بالزجاج ، وأخيرا قرر أن يبحث عن مكان آخر .

- مادمت سأعترف بكل شئ ، أليس كذلك؟ لاداعى للإنكار! تماما كما لو كان يتحدث إلى شخص أصم ، أو إلى شخص لا يفقه حرف واحدا من الفرنسية ، كان ميجريه يحشو غليونه ، ويدس فيه التبغ بسبابته بطريقة دقيقة!

- هل معك ثقاب ؟

- لا! أنا لا أدخن ، كما تعرف ، أن زوجتي هي التي لاتحب رائحة التبغ ، أحب أن ينتهي الأمر بسرعة ، هل تفهم ؟ سأقول ذلك للمحامي الذي سأختاره ، لا داعي للتعقيدات ! سأعترف بكل شئ . لقد قرأت في الصحيفة اليومية أنهم عثروا على جزء من الأوراق المالية ، إنني لا أعرف لماذا فعلت ذلك .فعندما كنت أشعر بها في جيبي ، كان يلوح لي أن كل من في الطريق ينظرون إليّ .. ففكرت أولا أن أخفيها في مكان ما .. ولكن لماذا أفعل ذلك؟..

« سرت بحذاء الرصيف .. كانت هناك بعض الزوارق .. فخشيت أن يراني أحد البحارين » .

« عندئذ عبرت جسر ماري . وفي جزيرة «سان - لوى» ، استطعت أن أتخلص من الحزمة..» .

كان الديوان ساخنا للغاية، كان البخار يسيل فوق الزجاج . وكان دخان الغليون يتمدد حول المصباح .

Add to Basket

« كان يجب أن أعترف لك بكل شئ في المرة الأولى التي رأيتك فيها .. لم تكن لدي الشجاعة .. وكنت آمل أن ...» .

وصمت مارتان ، وتطلع بفضول إلى صاحبه الذي كان قد فغر فاه وأغمض عينيه ، وراح يتنفس بصوت رتيب أشبه بمواء قط كبير مغتبط .

كان ميجريه نائما !.

وألقى الآخر نظرة على الباب ، الذي يكفي أن يدفعه ، وكما لو كان أراد أن يهرب من الغواية ، انزوى في أحد الأركان وهو يضم فخذيه ، ويداه الجزعتان فوق ركبتيه النحيفتين .

محطة الشمال . صباح يوم رمادي . وسكان الضاحية ، الذين استيقظوا متأخرين ، يعبرون الأبواب في جماعة .

كان القطار قد توقف بعيدا عن بهو المحطة . كانت الحقائب ثقيلة . وكان مارتان لا يريد أن يتوقف . كان منهك القوى وكانت يداه تؤلمانه .

واضطر للانتظار طويلا حتى تمر إحدى سيارات الأجرة .

– هل أنت ذاهب بي إلى السجن ؟

لقد أمضيا خمس ساعات في القطار لم ينطق ميجريه خلالها عشر جمل بل هي أدهى من ذلك ! فقد كانت جملا لا علاقة لها الجريمة ، ولا بالثلاثمائة وستين ألف فرنك! كان يتحدث عن غليونه ، أو عن حرارة الجو ، أو عن موعد الوصول .

– ٦١ ميدان الفوج !

قالها ميجريه للسائق .

فقال مارتان متوسلا :

– أتعتقد أنه من الضروري أن ..

Add to Basket

ثم ، قال لنفسه :

« ماذا سيظنون فى المكتب؟. لم يكن لدى وقت لإبلاغهم» .

كانت الحارسة فى مسكنها ، تفرز البريد : كومة كبيرة من الخطابات لعامل أمصال الدكتور ريفيير ، وكومة صغيرة لبقية سكان المنزل .

– سيدى مارتان ! . سيدى مارتان ! . لقد حضر بعضهم من مكتب التسجيل ليسأل إذا كنت مريضا .. فيبدو أن معك مفتاح الـ...

كان ميجريه يسحب صاحبه الذى اضطر إلى جر حقائبه الثقيلة على السلم حيث كانت توجد أمام الأبواب بعض آنية بها لبن وخبز طازج .

وتحرك باب «ماتيلد» العجوز .

– أعطنى المفتاح .

– ولكن ...

– افتح أنت بنفسك .

وحل صمت عميق ، قطعه صرير لسان القفل ، ثم بدت حجرة الطعام منظمة ، وكل شئ فى مكانه بالضبط .

وتردد مارتان طويلا قبل أن ينطق بصوت خافت يقول :

– هذا أنا !.. والمفتش ...

وتحرك شخص فى السرير الموجود فى الحجرة المجاورة . وما أن أغلق مارتان الباب ، حتى تأوه قائلا :

– ما كان يجب علينا أن ... إنها ليس لها دخل فى ذلك ، أليس كذلك؟... وفى حالتها هذه ...

كان لا يجرؤ على دخول الحجرة . راح يلتقط الحقائب ويضعها فوق مرسيين لكى يحافظ على اتزانه .

Add to Basket

– هل تحب أن أصنع قهوة ؟

وطرق ميجريه باب حجرة النوم .

– .. ممكن أدخل ؟

ولم يتلق ردا ، فدفع الباب ، فتلقى فى صميم وجهه نظرة ثابت من عينى مدام مارتان التى كات راقدة ، بلا حراك ، وشعرها فى «الفرشينات» .

– آسف لإزعاجك .. لقد أعدت إليك زوجك .

كان مارتان ماثلا خلفه . كان يحس به ، ولكنه لا يستطيع أن يراه .

وسمع وقع أقدام فى الفناء ، وأصواتا ، وبخاصة أصوات نساء : إنهم موظفو المكاتب والمعامل الذين كانوا يصلون . كانت الساعة تشير إلى التاسعة إلا دقيقة .

وعن قرب، سمعت صرخة مكتومة للمجنونة ، وعلى منضدة السرير ، كان ثمة بعض الأدوية .

– هل ساءت حالك ؟

كان يدرك تماما أنها لن تجيب ، وأنها ستتشبث على الرغم من كل شئ بتحفظها الشرس . كان يبدو أنها تخشى أن تنطق بكلمة ، كلمة واحدة ! وكأن الكلمة الواحدة يمكن أن تجلب المصائب !

كانت قد هزلت . وغدا لونها أكثر شحوبا . غير أن عينيها .. هاتين الحدقتين الرماديتين ، كانتا تحتفظان بحياتهما الخاصة ، المتوهجة ، العنيدة.

ودخل مارتان ، بساقين خائرتين . وكانت هيئته كلها تدل على أنه يعتذر ويطلب المغفرة . .

وراحت العينان الرماديتان تتحولان ناحيته فى بطء ، جامدتين ، قاسيتين حتى أنه أشاح بوجهه وهو يقول متلعثما :

Add to Basket

– في محطة « جومون » ... دقيقة واحدة وكنت سأبلغ بلجيكا ...

كان لابد من كلمات . وجمل ، وضوضاء لشغل كل هذا الفراغ الذى كان يبدو أنه يحيط بكل شخصية . فراغ كان ملموسا لدرجة أن الأصوات كانت ترجع الصدى ، وكأننا تحت نفق أو في مغارة .

ولكنهم كانوا لا يتكلمون . كانوا فقط يتشدقون ببعض المقاطع ، بعيون قلقة ، ثم يخيم الصمت كما يطبق الضباب .

ومع ذلك فقد كان هناك شئ ما يجرى ، شئ بطئ ، خفى : يد تزحف تحت الغطاء ، وترتفع في حركة غير ملموسة حتى تبلغ الوسادة .

كانت هذه يد مدام مارتان ، النحيلة ، المبللة . وكان ميجريه ، وهو ينظر إلى مكان آخر ، يتابع تقدم اليد ، وينتظر اللحظة التى تصل فيها غايتها .

– ألن يأتى الطبيب هذا المساء ؟

– لست أدرى .. وهل هناك من يهتم بى ؟ . اننى هنا كحيوان يتركونه للموت .. ولكن العينْ غدت أكثر بريقا لأن اليد لمست أخيرا ما كانت تبغى .

وسمع حفيف ورقة لا يكاد يبلغ الآذان .

وتقدم ميجريه خطوة ، وأمسك مدام مارتان من معصمها .. كنت تبدو بلا قوة ، وربما بلا حياة . ولم يمنع ذلك أنها بين لحظة وأخرى كانت تبرهن عن قوة خارقة..

كانت لا تريد أن تترك مابيدها . وكانت تدافع بغيظ ، وهى جالسة فوق السرير وراحت تقرب يدها من فمها . وتمزق بأسنانها الورقة البيضاء التى كانت تضغط عليها .

– دعنى! .. دعنى وإلا صرخت!. وأنت؟. أتتركه يفعل ذلك ؟.

وتأوه بهامارتان قائلا :

– سيدى المفتش .. أتوسل إليك ..

Add to Basket

كان يصغى .. فقد كان يخشى أن يأتى السكان مهرولين .. ولم يكن يجرؤ على التدخل .

– أيها الوحش ! . أيها الوحش القذر!. تضرب امرأة ؟

كلا!. لم يكن ميجريه يضربها . كان مكتفيا بإمساك يدها ، وربما مع ضغط على رسغها بشئ من القوة ، لكى يمنعها من إبادة الورقة .

– ألا تخجل !. تضرب امرأة تحتضر ..

امرأة كانت تبذل مجهودا قلما صادف مثله ميجريه خلال فترة خدمته!. وسقطت قبعته على السرير . لقد عضت المفتش في رسغه فجأة .

ولكنها لم تستطع أن تستمر مشدودة الأعصاب طويلا ، ونجح ميجريه فى إبعاد أصابعها ، بينما راحت هى تطلق أنينا أليما .

والآن ها هى ذى تبكى ، دون أن تبكى ، أتبكى سخطا ، أو غيظا أو ربما لكى تتخذ موقف ؟

– وأنت ، تتركه يفعل ذلك ..

كان يظهر ميجريه عريضا جدا بالنسبة للحجرة الضيقة ، كان يلوح أنه يملأ الفرا غ كله ، ويحجب الضوء .

واقترب من المدفأة ، ونشر الورقة التى زالت أجزاء من أطرافها ، ورأ نصا مكتوبا بالآلة الكاتبة ، تعلوه هذه العبارة :

« لا فال وبيوليه » .

من محامى باريس .

مستشاران .

مكتب قضائى » .

وإلى اليمين ، باللون الأحمر ، كانت هذه العبارة : « قضية كوشيه

Add to Basket

ومارتان . استشارة بتاريخ ١٨ نوفمبر » .

صفحتان مقتضبتان ، مع مسافة بين الأسطر . لم يقرأ ميجريه منها إلا أجـزاء ، بصوت خـافت ، وكـانت أصـوات الآلات الكاتبـة تـأتي من مكاتب أمصال ريفيير .

« بعد الاطلاع على القانون ...

ونظرا لأن انتحار روجيه كوشيه كان لاحقا لمقتل أبيه ..

.. وأن الوصية لا يمكن أن تهضم ابنا شرعيا نصيبه الذى هو من حقه،.

.. وأن الزواج الثانى لصاحب الوصية من السيدة « دورموى» قد تم فى عهد روكية الأموال ..

.. وأن الوارث الطبيعى لروجيه كوشيه هو والدته ..

.. نتشرف بأن نؤكد لكم أن من حقكم المطالبة بنصف الثروة التى تركها أوسكار كوشيه من منقولات وعقارات .. وأنه ، طبقا لمعلوماتنا الشخصية ، فنحن نرى ، ما عدا الخطأ ، أن المصنع المعروف باسم الدكتور « ريفيير» ، يقدر بحوالى خمسة ملايين ، وكان قبلا يقدر بثلاثة ملايين ..

....

« ... ونحن فى خدمتكم للقيام بجميع الإجراءات اللازمة لإبطال الوصية و.. ..

نؤكد لكم أننا نحتفظ لأنفسنا بالحق فى عمولة تقدر بعشرة فى المائة (١٠٪) من المبالغ المستردة وذلك كمصاريف لـ..» .

★ ★ ★

كانت مدام مارتان قد كفت عن البكاء ، وكانت قد عادت إلى رقادها ، وراحت نظرتها الجامدة تتطلع إلى السقف من جديد .

Add to Basket

كان مارتان يقف فى إطار الباب وهو أشد ما يكون حيرة ، لا يدرى ماذا يصنع بيديه ، وعينيه ، وجسده جميعا .

ودمدم ميجريه لنفسه قائلا :

– هناك حاشية !

وكانت هذه الحاشية مسبوقة بهذه العبارة : «سرى للغاية» .

« نحن نعتقد أن مدام كوشيه ، من عائلة دورموى» ، مستعدة هى الأخرى ، للطعن فى الوصية .

ومن جهة أخرى ، قمنا بالاستعلام عن المستفيدة الثالثة ، وهى نين مونار.

إنها امرأة متشككة ، ولم تتخذ بعد أى إجراء للمطالبة بحقوقها .

ونظرا لأنها الآن بلا مورد ، فقد بدا لنا أن أجدى طريقة هى أن نعرض عليها أى مبلغ على سبيل التعويض.

ونحن من جانبنا نقدر هذا المبلغ بعشرين ألف فرنك ، وهو مبلغ من شأنه أن يغرى شخصا فى مثل حالة نين مونار .

ونحن فى انتظار قراركم بشأن هذا الموضوع ...» .

كان ميجريه قد ترك غليونه ينطفئ .. ثم طوى الورقة ببطء ، ودسها فى حافظته ، ومن حوله كان يخيم صوت مطبق . وساءت حال مارتان حتى أنه حبس أنفاسه . وكانت زوجته ، على السرير ، بنظرتها الثابتة ، تبدو كالميتة.

ودمدم ميجريه يقول :

– مليونان وخمسمائة ألف فرنك .. مع خصم مبلغ الخمسة والعشرين ألف فرنك التى ستأخذها نين لكى تتساهل .. صحيح أن مدام كوشيه ستدفع نصفه ..

Add to Basket

كان متأكداً أن ابتسامة ظفر غانمة ، ولكن بليغة ، ترتسم على شفتي المرأة .

– ياله من مبلغ !. يامارتان ...

فانتفض مارتان ، وحاول أن يتخذ موقفا دفاعيا .

– كم ستأخذ في ظنك ؟ . أنا لا أتحدث عن المال.. وإنما أتحدث عن الحكم .. سرقة. وقتل . وربما ثبت سبق الإصرار .. ما رأيك؟. لا أمل في البراءة بكل تأكيد ، مادام الموضوع لا يتعلق بجريمة عاطفية .. آه!. فقط لو كانت امرأتك قد أقامت علاقات مع زوجها القديم .. ولكن الأمر يختلف . إنه موضوع مال ، ولا شئ غير المال .. عشر سنوات ؟. عشرين سنة؟. هل تريد رأيي؟.

لاحظ أننا لا نستطيع أبدا أن نحرز قرار القضاة ..

وهذالا يمنع من وجود سوابق .. ايه عظيم!. إننا بوجه عام يمكن أن نقول إنهم إذا كانوا يتسامحون في مآسي الغرام ، فإنهم قساة للغاية في هذه القضايا القائمة على المنفعة..

كان المرء يظن أنه يتكلم لكي يتكلم ، لكي يكسب وقتا .

– شئ مفهوم! . فهم برجوازيون ، تجار .. يعتقدون أنه ليس هناك ما يمكن أن يخشوه على عشيقات لا يملكونهن أو واثقون منهن . ولكنهم يخشون اللصوص كثيرا!. عشرين سنة؟. إيه حسن!. كلا!. انني أميل إلى الإعدام .

لم يعد مارتان يتحرك . وبمقارنة بينه وبين زوجته ، كان هو الآن أكثر دكانة .

– ولكن مدام مارتان ستصبح ثرية .. انها في السن التي تعرف فيها كيف تتمتع بالحياة وبالثروة ..

Add to Basket

واقترب من النافذة .

– ان لم تكن هذه النافذة ... انها حجر العثرة .. فلن يلبثوا أن يلاحظوا أن المرء من هنا يستطيع أن يرى كل شئ .. كل شئ .. هل تسمعني؟.. وهذا خطير !.. لأن ذلك قد يثير فكرة الاشتراك فى الجريمة .. عندئذ ، يوجد فى القانون نص صغير يمنع القاتل ، من وراثة الضحية .. ليس فقط القاتل .. وإنما شركاؤه أيضا .. إنك تر أهمية وجود هذه النافذة . لم يعد الصمت هو ما يحيط به . كان شيئا آخر أكثر اطباقا ، وأكثر إقلاقا ، يكاد يكون غير حقيقى : إنعدام تام لأى أثر للحياة .

وفجأة وجه سؤالا :

– قل لى يامارتان ، ماذا صنعت بالمسدس ؟

وسمعت في الممر انتفاضة حياة : كانت « ماتيلد» العجوز طبعا بوجهها القمرى ، وبطنها الطرى ، تحت المئزر ذى المربعات .

وأتى صوت الحارسة الحاد من الفناء يقول :

– مدام مارتان!.. هذا دوفايل ..

وجلس ميجريه فى كرسى اهتز تحته ، ولكنه لم يتحطم فى الحال .

Add to Basket

(١١)
الرسم المنقوش على الحائط

– أجب!.. ماذا فعلت بالمسدس؟.

وتابع نظرة مارتان ، ووجد أن زوجته التي كانت تصوب نظرها إلى السقف تحرك أصابعها على الحائط .

كان مارتان المسكين يبذل مجهودا خارقا لكي يفهم ما كانت تريد أن تقول له . كان متلهفا . فقد كان ميجريه ينتظر الاجابة .

– لقد ...

ماذا يعني هذا المربع ، أو هذا المنحرف الذي تخططه بإصبعها النحيل؟.

– ماذا ؟.

وهنا أشفق عليه ميجريه حقا . لا شك أن اللحظة كانت مفزعة . لقد كان مارتان يختلج من الجزع .

– ألقيته في « السين » ...

قضي الأمر ! وبينما كان المفتش يخرج المسدس من جيبه ، ويضعه فوق المنضدة ، كانت مدام مارتان تنتصب فوق السرير ، بوجه يقطر حنقا . فقال ميجريه :

– لقد بحثت حتى عثرت عليه في صندوق القمامة ...

ثم خرج صوت المرأة المحمومة كالفحيح يقول :

Add to Basket

– آه!... هل فهمت الآن ؟... مبسوط ؟... لقد أضعت الفرصة ، مرة أخرى، كما هي عادتك دائما!... ولقد فعلت ذلك خصيصا ، خوفا من دخول السجن ... ولكنك ستدخله رغما عن ذلك !... لأن السرقة ، أنت التي ارتكبتها !.. الثلاثمائة والستون ألف ورقة التي ألقاها الاستاذ في نهر السين ....

كانت مرعبة . وكان الناظر يدرك أنها كانت قد تمالكت نفسها أكثر من اللازم.. كان اندفاعها عنيفا . وكان هياجها من الهوس بحيث أن كلمات عديدة كانت تمثل أحيانا على شفتيها في نفس اللحظة ، وكانت تخلط بين الألفاظ ..

كان مارتان مطرقا برأسه . لقد انتهى دوره . وكما وبخته زوجته فقد أخفق بطريقة تبعث على الرثاء .

– ... لقد قرر الأستاذ أن يسرق ، ولكنه نسي قفازه فوق المكتب ... إن مظالم مدام مارتان كلها راحت تنهال ، دونما تنظيم .

وسمع ميجريه خلفه صوت الرجل الذليل صاحب المعطف المطاط يقول :

– منذ شهور وهي تشير لي إلى المكتب من النافذة ، وإلى كوشيه الذي اعتاد الذهاب إلى الأحواض ...

... وكانت تلومني لأنني أنغص عليها حياتها ، ولا أستطيع أن أعول امرأة ... فذهبت ....

– هل أخبرتها بأنك ذاهب ؟.

– لا .. ولكنها كانت تعلم .. فقد كانت تنظر من النافذة ..

– ومن بعيد ، رأيت القفاز الذي نسيه زوجك ، يامدام مارتان ؟

– وكأنه يترك بطاقة زيارة ، علما بأنه كان يريد أن يغيظني ...

– فأخذت مسدسك وذهبت إلى هناك ... ورجع كوشيه ، بينما أنت لا تزالين في المكتب ... فاعتقد أنك أنت السارقة ...

– وأراد أن يقبض علي ، أجل! هذا هو ما أراد أن يفعله : وكأنه لم يصبح

Add to Basket

غنيا بفضلي أنا!... فمن الذي كان يقوم على خدمته ، في البداية ، عندما كان لا يجني من المال ما يقيم أوده من خبز بلا زبد؟... والرجال جميعا متشابهون!.. لقد بلغ به الأمر إلى حد لومي على السكنى في المنزل الذي توجد به مكاتبه ... واتهمني بمقاسمة ابني للمال الذي كان يعطيه إياه ...

– وأطلقت الرصاص ؟

– كان قد رفع سماعة التليفون ليستدعي الشرطة .

– وتوجهت ناحية صناديق القمامة . وبحجة البحث عن ملعقة صغيرة دسست المسدس وسط القانورات .... من الذي قابلته عندئذ؟..

فقالت وكأنها تبصق :

– العجوز الأبله ، ساكن الطابق الأول ...

– ولا أحد غيره ؟ أعتقد أن ابنك أتى ... فلم يكن لديه نقود ...

– وبعد ذلك ؟...

– لم يكن قد أتى من أجلك أنت ، وإنما من أجل أبيه ، أليس كذلك ؟ كل ما هناك لم تستطيعي أن تتركيه يذهب حتى المكتب ، حيث كان من الممكن أن يكتشف الجثة ... كنتما في الفناء ، أنتما معا .. فماذا قلت لروجيه ؟.

– أن ينصرف ... أنك لا تستطيع أن تفهم قلب الأم ...

– فانصرف ... وعاد زوجك ... ولم يحاول أحدكما سؤال الآخر ، مضبوط... كان مارتان يفكر في الأوراق المالية التي إنتهى به الأمر إلى إلقائها في « السين » لأنه في الواقع رجل طيب مسكين .

– رجل طيب مسكين ! كررتها مدام مارتان بحنق غير منتظر . ها! ها! وأنا؟ ... أنا التي طالما شقيت ...

– ولم يعرف مارتان من الذي قام بالقتل ... ونام ... ومضى يوم دون أن تتحدثا عن شئ ... ولكنك في الليلة التالية ، نهضت لكي تفتشي الملابس التي

Add to Basket

خلعها .... وبحث عن الأوراق دون جدوى ... وكان هو ينظر إليك ، فسألته ... وهنا تكمن أزمة الحنق التي سمعتها « ماتيلد» العجوز من وراء الباب .. لقد قتلت بلا فائدة!. فقد ألقى مارتان الأبله بالنقود !. بثروة في «السين» ، افتقارا إلى الشجاعة!... ومرضت بسبب ذلك .... فقد أصابتك الحمى .... وذهب مارتان نفسه ، الذى كان يجهل أنك القاتلة ، ليعلن روجيه بالخبر ...

وفهم روجيه ... فقد رآك في الفناء ... ومنعته أنت من التقدم .... أنه يعرفك ... واعتقد أنني ارتاب فيه ... وتصور أننا سنلقى القبض عليه ، ونوجه إليه التهمة ... وهو لا يستطيع أن يدافع عن نفسه دون أن يتهم أمه ...

وهو قد لا يكون شابا لطيفا ... ولكننا قد نجد فى الحياة التى كان يعيشها بعض العذر .. لقد أصابه القرف .. القرف من النساء اللاتى كان ينام لديهن ، ومن العقاقير ، ومن «مونمارتر» حيث كان يذهب ، وفوق ذلك كله ، القرف من مأساة العائلة التى كان يدرك وحده ما يمكن أن تؤدى إليه ...

فألقى بنفسه من النافذة !

كان مارتان قد استند إلى الحائط ، ووجهه بين يديه المثنيتين ، ولكن امرأته كانت تنظر إلى المفتش بإمعان ، وكأنها لا تنتظر إلا اللحظة التى تدخل عندها في سرد الأحداث وتهاجم بدورها .

وعندئذ عرض ميجريه الاستشارة التي حررها المحاميان .

– وفى زيارتي الأخيرة ، كان الخوف يسيطر على مارتان حتى أنه كان سيعترف بسرقته .. ولكنك كنت موجودة ... وكان يلمحك من فرجة الباب .. كنت توجهين إليه إشارات قوية فلزم الصمت ..

– أليس ذلك ما فتح عينيه أخيرا؟ لقد سألك ... فأجبته بأنك قتلت .

وصرخت بها في وجهه! قتلت من أجله ، من أجل تدارك نسيانه ، من أجل ذلك القفاز الذي تركه فوق المكتب!.. ولأنك قتلت ، فإنك لن ترثى شيئا على

Add to Basket

الرغم من الوصية!.. آه! لو كان مارتان رجلا ..

– فليرحل إلى الخارج .. وسيؤمنون بإدانته .. ثم تهدأ الشرطة ، وبعد ذلك تلحقين به مع الملايين ..

– ورحل مارتان المسكين !..

وكاد ميجريه يحطم الرجل الطيب بضربة هائلة فوق كتفه . كان يتكلم بصوت لا رنين له . كانت كلماته تتساقط دونما إلحاح منه .

– ما أكثر ما حدث من أجل هذه النقود!.. قتل كوشيه .. وانتحار روجيه بالقاء نفسه من النافذة .. وفى آخر دقيقة ندرك أننا لن نحصل عليها!..

وفضلت أن تعدي وبنفسك حقائب مارتان .. حقائب مرتبة ترتيبا حسنا .. ملابس لعدة شهور ..

– أسكت !

قالها مارتان متوسلا .

وصرخت المجنونة . ففتح ميجريه الباب على حين فجأة ، فكانت ماتيلد العجوز تنكفئ على وجهها .

ففرت هاربة ، فزعة من صوت المفتش ، ولأول مرة راحت تغلق بابها حقا وتدير المفتاح فى المتراس .

وألقى ميجريه بنظرة أخيرة على الحجرة . كان مارتان لا يجرؤ على الحركة وزوجته فوق السرير ، هزيلة ، وقد برزت عظام كتفيها تحت قميص النوم ، تتابع بعينيها رجل الشرطة .

كانت رزينة ، ساكنة حتى ليتساءل الناظر اليها بعين قلقة عما تعد .

وتذكر ميجريه بعض النظرات فى أثناء المشهد السابق ، وبعض حركات الشفاه . واستحضر ما جرى ، فى الوقت نفسه الذى فعل فيه مارتان ذلك .

لم يكن فى استطاعتهما التدخل . فقد حدث هذا خارجا عن إرادتهما .

Add to Basket

كحلم مزعج كانت مدام مارتان هزيلة ، هزيلة . وغدت ملامحها أبعث على الحزن عن ذى قبل .

ترى ما الذى تتطلع اليه ، فى أماكن ليس بها إلا الأشياء المألوفة فى الحجرة ؟

ما هذا الذى تتابعه باهتمام في الحجرة ؟

كان جبينها يتغضن . وكان صدغاها يختلجان .

فصاح مارتان :

– إنى خائف !

لم يتغير شئ فى المسكن . ودخلت سيارة صغيرة فى الفناء وسمع صوت الحارسة الحاد .

إن الناظر إلى مدام مارتان ليظن أنها تبذل بمفردها مجهودا جبارا ، لكى تجتاز جبلا لا يمكن الوصول إليه . ومرتين ، رسمت يدها حركة من يبعد شيئا عن وجهه .

وأخيرا ازدردت ريقها ، وابتسمت ابتسامة شخص يبلغ بغيته :

– ومع ذلك فستأتون جميعاً لتسألونى بعض النقود .. سأطلب إلى موثق عقودى ألا يعطيكم شيئا ..

واختلج مارتان من قدميه حتى رأسه . فقد أدرك أن هذا ليس هذيانا عابرا نتج عن الحمى .

لقد فقدت صوابها نهائيا !

– لا يمكن أن يحقد أحد عليها . فهى لم تكن أبداً كسواها تماما ، أليس كذلك؟

قالها مارتان بأسى :

كان ينتظر تأكيد ميجريه .

Add to Basket

– مسكين يامارتان ..

كان مارتان يبكي! وكان يمسك يد زوجته ويحكها في وجهه ، وكانت هي تدفعه عنها . وكانت على شفتيها ابتسامة متعالية محتقرة .

– لا أكثر من خمسة فرنكات مرة واحدة .. لقد قاسيت بما فيه الكفاية ، أنا من... فقال ميجريه :

– سأتصل «بسانت – آن» ..

– هل تعتقد ؟.. هل من الضروري احتجازي ؟..

أهي قوة العادة ؟ لقد ابتأس مارتان لفكرة مغادرة مسكنه ، هذا الجو من التأنيب والعراك اليوميين، وهذه الحياة القذرة . وهذه المرأة التي تحاول ، للمرة الأخيرة ، أن تفكر ، لكنها تقنط وتغلب على أمرها ، فترقد وعلى شفتيها ابتسامة عريضة وهي تهذى :

– احضروا لي المفتاح ...

وبعد لحظات كان ميجريه يجتاز زحام الشارع ، كرجل غريب . والأمر الذي كان يحدث له نادرا ، أنه شعر بصداع فظيع ، فدخل صيدلية ليبتلع قرصا من الاسبرين .

كان لا يرى حوله شيئا . وكانت ضوضاء المدينة تختلط بضوضاء أخرى ، بأصوات بشرية على وجه الخصوص ، كانت لاتزال تدوى في نافوخه .

كانت هناك صورة متسلطة عليه أكثر من غيرها من الصور : صورة مدام مارتان وهي تنهض ، وتلتقط ملابس زوجها من الأرض وتبحث فيها عن النقود! ومارتان ينظر إليها من سريره .

والمرأة توجه إليه نظرة مستفسرة فيقول :

– لقد ألقيتها في السين ..

ومنذ ذلك الحين وهذا الصداع قائم في رأسها . أو بالأحرى هذاالخلل!

عندما كانت تعيش فى محل حلوانى «سن - مو» .

كل ما هناك أن هذا لم يكن يبدو للعيان . فقد كانت فتاة أقرب إلى الجمال ولم يكن أحد ليهتم بشفتيها المفرطتين فى الدقة ..

وتزوجها كوشيه !

- ماذا سأصبح لو وقع لك سوء ؟

واضطر ميجريه للانتظار ، لكى يعبر شارع بومارشيه . ودونما سبب راح يفكر فى «نين» .

- لن تحصل على شئ!. ولا درهم - هكذا دمدم ميجريه بصوت خفيض - فستبطل الوصية . ومدام كوشيه الثانية هى التى ..

ولابد أن العقيد بدأ إجراءاته . كان هذا أمرا طبيعيا . وقد تحصل مدام كوشيه على كل شئ! على كل الملايين ..

إنها سيدة مرموقة ، تعرف كيف تحافظ على كرامتها ..

وصعد ميجريه السلم فى بطء ، ودفع باب شقته بشارع « ريتشارد لونوار» .

- من الذى وصل ؟

كانت مدام ميجريه تضع فوق غطاء المائدة الأبيض أربعة أطقم . ولمح ميجريه فوق « البوفيه» إبريقا من «القراصية» .

- أختك ؟

لم يكن تخمين ذلك بالأمر العسير ، مادامت فى كل مرة تأتى فيها من «الزاس» كانت تحضرمعها إبريقا من الكحول وفواكه وفخذ خنزير مقددا .

- لقد خرجت لتقوم ببعض الجولات مع أندريه ..

زوجها ! شاب طيب يدير مصنعا للطوب .

- يبدو عليك الارهاق .. أتعشم ألا تخرج اليوم إطلاقا ، على الأقل ؟

ولم يخرج ميجريه . وفى التاسعة مساء ، كان يلعب مع أخت زوجته

وزوجها لعبة القزم الأصفر . وكانت « القراصية » تعبق جو حجرة الطعام .

وكانت مدام ميجريه تنطلق ضاحكة بين لحظة وأخرى لأنها لم تتوصل بعد إلى معرفة أوراق اللعب فكانت تأتى كل ما يتصوره العقل من حماقات .

– هل أنت متأكدة أنه ليس معك تسعة ؟

– أجل ، معى ..

– إذن ، فلماذا لاتلعبين ؟

كان هذا كله بالنسبة لميجريه ، يمثل حماما ساخنا . فلم يعد يشعر بالصداع . لم يعد يفكر فى مدام مارتان ، التى حملتها احدى عربات الاسعاف فى طريقها إلى « سانت – آن » حيث مستشفى الأمراض العقلية ، بينما كان زوجها ينتحب وحيدا على السلم الخالى .

« تمت »

رقم الايداع :٢٠٠٣/٧٤٥٥
I.S.B.N
977-07-0875-5

أحـــدث إصـــدارات روايات الهـــلال

العدد	اسم الرواية	المؤلف	التاريخ	الثمن بالجنيه
٦٤٤	حالة مستعصية	سعيد سالم	أغسطس ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٤٥	صهاريج اللؤلؤ	خيرى شلبى	سبتمبر ٢٠٠٢	٧,٠٠
٦٤٦	حلم ليلة افريقية	سبريان إكوينسى	أكتوبر ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٤٧	ليلة عرس	يوسف أبو ريه	نوفمبر ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٤٨	رجل أبله امرأة تافهة	محمد ناجى	ديسمبر ٢٠٠٢	٥,٠٠
٦٤٩	ريحانة	ميسون صقر	يناير ٢٠٠٣	٧,٠٠
٦٥٠	اغتيال	أميلى نوتومب	فبراير ٢٠٠٣	٥,٠٠
٦٥١	كائنات محتملة	محمد عزالدين التازى	مارس ٢٠٠٣	٥,٠٠
٦٥٢	سواقى الوقت	سلوى بكر	أبريل ٢٠٠٣	٥,٠٠
٦٥٣	ما ذكره رواة الأخبار	محمد جبريل	مايو ٢٠٠٣	٧,٠٠
٦٥٤	الدار الكبيرة	محمد ديب	يونيه ٢٠٠٣	٨,٠٠
٦٥٥	النـــول	محمد ديب	يوليه ٢٠٠٣	٦,٠٠

هذه الرواية

كان من المفروض أن يلتقى السيد «كوشيه» صاحب معمل الأمصال مع «نين» التى تعمل لديه منذ ستة أشهر ، فى مطعم «السيليكت» حيث تواعدا على تناول العشاء معا مساء ذلك اليوم . غير أن «كوشيه» كان على موعد آخر مع قاتله .

لقد وجد «كوشيه» فى مكتبه بالمعمل مقتولا بطلق نارى ، من مسدس قاتل يرجح أنه قريب منه ، ويعرفه جيدا ، ويعرف أن بخزينة المكتب رواتب الموظفين ، استعدادا لصرفها لهم فى اليوم التالى ، فقتله واستولى عليها .

لقد وقعت الجريمة فى جو موحش ، تطبق عليه الرهبة والظلمة إلا من مصابيح خافتة تبرز خيال الجانى .

ترى .. هل القاتل أحد العاملين مع «كوشيه» فى المعمل .. أم الزوجة السابقة التى يشتعل قلبها حقدا على «كوشيه» .. أم أنه ولده المستهتر ؟

أسئلة كثيرة ، كان على المفتش «ميجريه» أن يحل طلاسمها من خلال لقاءاته مع المشتبه فيهم والحوار معهم ليصل إلى القاتل .

هل لنا أن نبدأ مع «ميجريه» رحلة البحث ؟!

جورج سيمينون

- ولد جورج سيمينون بمدينة لييج ببلجيكا عام ١٩٠٣ .
- لم يكمل تعليمه وتنقل بين المهن حتى استقر محررا فى صحيفة «جازيت دو لييج»
- فى عام ١٩٢٢ بدأ يكتب الرواية ، وحظى برعاية كل من أندريه جيد وجاستون جاليمار الناشر المشهور .
- كتب حوالى ٢٠٠ رواية باسم مستعار قبل أن يوقع باسمه الحقيقى على ٢٠٠ رواية أخرى .
- توقف عن الكتابة البوليسية عام ١٩٧٢ ليبدأ فى كتابة مذكراته بعنوان «الأمالى» .
- توفى سيمينون عام ١٩٨٩ وترك حوالى ٤٠٠ رواية و٢٥ مؤلفا فى السيرة الذاتية و١٠٠٠ قصة .

أدبيات

نبع الأدب والثقافة المعاصرة

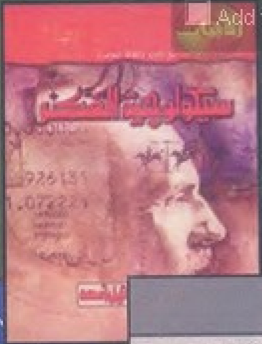

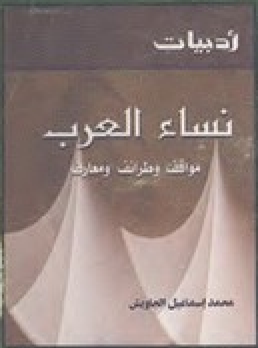

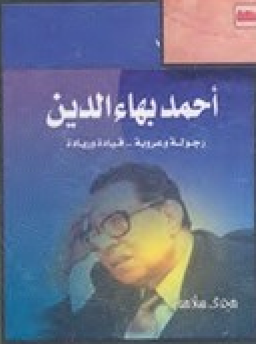

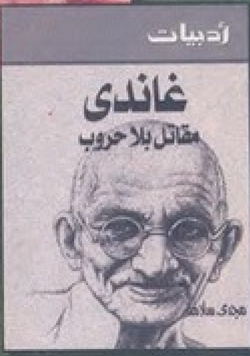

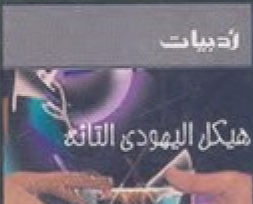

Bibliotheca Alexandrina
0725314

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع (مطابع سلاح التلميذ) 13,10,8 شارع 47 المنطقة الصناعية بالعباسية